جورج آرنو

هاربون من الخوف

رواية

تقديم وتحرير

حسين صلاح الدين

الكتاب: هاربون من الخوف (رواية)

الكاتب: جورج آرنو

تقديم وتحرير: حسين صلاح الدين

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

آرنو، جورج

هاربون من الخوف (رواية) / جورج آرنو, تقديم وتحرير: حسين صلاح الدين

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٣٥ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٤١٩١ / ٢٠٢٠

هاربون من الخوف



مقدمة

جورج أرنو، هو الاسم المستعار للصحفي والروائي وكاتب السيناريو الفرنسي الشهير هنري جيرارد، أو تشارلز هنري جورج اشيل جيرار، المولود في ١٦ يوليو ١٩١٧ في ضاحية هيرو التي تتبع مونبلييه بفرنسا.

وكان هنري جيرارد في التاسعة من عمره عندما توفيت والدته في عام ١٩٢٦، متأثرة بإصابتها بمرض السل الذي انتقل عن طريقها إلى ابنها، فعانى منه طوال حياته، ورغم يتمه وصعوبة حياته في فترة الطفولة إلا أنه كان طالبا متفوقا، لدرجة أنه حصل على البكالوريوس في العلوم الإنسانية، وهو في سن الخامسة عشر عاما، ثم بعدها درس القانون في باريس.

وكان معروفا عنه تمرده وغرابة أطواره، مما أدى إلى عدم استقرار حياته العائلية فتعددت زيجاته، ولم تستمر أية زيجة منها طويلا.

والده هو المؤرخ الشهير جورج جيرارد، وقد تعرض للقتل مع أخيه في منزل العائلة بالقرب من بيريجو في وسط فرنسا عام ١٩٤١ وقد اتهم جورج آرنو بقتلهما وقضى مدة تسعة عشر شهرًا في السجن قبل أن تظهر براءته في عام ١٩٤٣.

وبعد ذلك أقام في باريس بين عامي ١٩٤٣ – ١٩٤٧، حيث تزوج من المغنية سوزان جراو، وكتب لها كلمات الكثير من أغانيها، ولديه منها ولدين.

في عام ١٩٤٧ انتقل من فرنسا إلى الجزائر، حيث دعم حركة الاستقلال الجزائرية خلال حربها ضد فرنسا، وعاد إلى باريس عام ١٩٥٠ حيث أصدر روايته الأولى "مراتب الخوف" التي ترجمت إلى العديد من لغات العالم، ومنها العربية وباعت في ثلاثة أعوام مليوني نسخة، ونصدرها اليوم تحت عنوان "هاربون من الخوف".

بعد نجاح الرواية أصدر العديد من الكتب منها: "رحلة السارق السيئة.. سيرة شبه ذاتية عن مسافر على متن سفينة شحن".

وتزوج للمرة الثالثة، كما واصل تأييده للثورة الجزائرية، وانتقد محاكمة وسجن جميلة بوحيرد، و كان ذلك من أسباب إعلان ضيقه بفرنسا ونظامها القضائي، ونتيجة لذلك ألقي القبض عليه وتمت محاكمته وصدر ضده حكم بالسجن مع وقف التنفيذ لمدة عامين (١٩٦٠) وإن ظل محبوسا طوال فترة المحاكمة التي زادت عن شهرين، وبعد أن نالت الجزائر استقلالها انتقل للعيش فيها بصحبة زوجته الثالثة، وهناك أسهم في تأسيس مدرسة للصحافة وأيضا شارك في إنشاء المركز الوطني للسينما، وفي عام ١٩٧٢ ساءت حالته الصحية فعاد إلى فرنسا ليتلقى علاجا من السل في مصحة متخصصة في شاموني، بعدها عاد إلى الجزائر فلما ساءت صحته ثانية اضطر إلى العودة نهائيا إلى فرنسا في عام ١٩٧٤.

ومن عام ١٩٧٥ إلى ١٩٨١ كان يشارك في تحرير التقارير التليفزيونية الفرنسية الاستقصائية عن الحالات الكبرى، خاصةً طائفة مون وحالة بيبير (لاجئ سابق لجريمة الحرب من قوات الأمن الخاصة في هوت

ساون، الذي أحرق منزله في ١٩٧٦، وقد تم اكتشاف جثة مجهولة الهوية تحت الأنقاض) وفي عام ١٩٨٤، استقر جيرارد مع زوجته في برشلونة، وهناك أصابته أزمة قلبية مات على إثرها في ٤ مارس ١٩٨٧.

وهذه الرواية "هاربون من الخوف" قصة من قصص الضمير الانساني ومن قصص العاطفة والمغامرة، وتدور أحداثها في جواتيمالا بأمريكا الوسطى، حيث يعيش السكان المحليون من أهل البلد وهم السمر والسود بحسب التصنيف الطبقى المعتمد على لون البشرة، على النفايات من خيرات بلادهم.. أما ما تفيض به من ذهب أسود، فيستأثر به الغرباء , وقد تبعت مؤسساتهم شراذم من شذاذ الآفاق المطرودين من دولهم والمنفيين لأسباب غير مشرفة من جميع دول أوروبا، ليقوموا هناك برسالة الرجل الأبيض المزعومة في إطار من الفساد والانحلال والشهوات المنحطة.

وفي هذه الرواية تصوير يهز المشاعر لحالة هذا الشعب المظلوم، يبرزها المؤلف القدير جورج آرنو في قالب سباق جبار بين عاطفة الحب وبين الطمع في الثراء، وبين الخوف من الفناء. ومن كل مفاجأة من مفاجآته الشائقة، يبدو جانب جديد من أغوار النفس البشرية حين يردها الطمع والأنانية إلى معدنها الحيواني متجردة من نوازع التربية والفضيلة والحضارة.

و يصف جورج آرنو جشع أصحاب رؤوس الأموال واستخفافهم بالانسان في سبيل تحقيق مطامعهم.. ويبين أن النفس تدور حول محورين هما المال و الشهرة.. ورغم أن الكاتب فرنسي إلا أن ذلك لم يمنعه من تصوير الحقيقة كما هي و إن كانت تدين أوروبا برمتها حيث يصور معاناة

بلد يعتبر نموذجا للبلاد المغلوبة على أمرها انذاك.

تبدأ الرواية بتصوير الكارثة، تصور العمل في معسكر لاس بييدراس التابع لشركة استخراج البترول، أو الزيت الخام بحسب تعبير الرواية، فقد انفجرت إحدى الآلات التي تستخدم في الحفر والتنقيب نتيجة عدم تبريدها بالمياة، ونتج عن الانفجار موت ثلاثة عشر عاملا من بين خمسة عشر يعملون على الآلة وكلهم من أهل البلد، والسيد أوبرين مدير الموقع لا يهمه كم مات من الرجال، لا يهمه إلا مصلحته ومصلحة الشركة التي يمثلها، أول حديث له في الرواية في اليوم التالي للكارثة، يقول لمحدثه في التليفون " لم أتوجه إلى هناك بنفسي حتى الآن"، حيث يتعامل مع الحادث ببرود فلم يكلف نفسه مشقة معاينة مكان الحادث، ويصفه بأنه " مجرد حادث طارىء ليس إلا" دون اهتمام بعدد الضحايا، وكعادة المسئولين يتهمون الصحافة التي تكشف ما يخبئون بأنها تتعمد الإثارة وتضخيم الأمور، حتى حينما يصاب المهندس راينر بحالة ذهول وتضطرب أعصابه، وهو أمريكي مثله، يقول عنه " انهيار راينر جاء بفائدة كبيرة، هو الآن نصف مجنون"، يعرف أن شهادة راينر ستدين الشركة، وبالتالي فاضطراب أعصابه سيفقد شهادته قيمتها القانونية. حتى حينما تتصل أم راينر من أجل الاطمئنان على حالته، يقول للسكرتير " وأطلب منها ألا تزعجنا باستفساراتها المتلاحقة؛ فنحن هنا شركة الزيت الخام، ولسنا جمعية من جمعيات الأمومة. أطلب منها رقم تليفونه في تورنتو، وإذا مات سنبلغها فورًا".. هكذا ببرود ومنتهى اللاإنسانية، وكانت تلك اللمسات مقدمة قصد منها الكاتب تصوير شخصية المدير التي تؤهله للقيام بمثل الدور

الذى قام به كممثل لجهة استعمارية، لا يهمها إلا نهب ثروات الشعوب المستضعفة.

تستعرض الرواية حالة البطالة والفقر في المدينة التابعة لشركة الزيت الخام الأمريكية، مما يضطر الرجال الأربعة إلى القبول بالمهمة المسندة إليهم رغم خطورتها، كان أعضاء اللجنة يعرفون ذلك مسبقا، قال الخبير القادم من تكساس بطائرة خاصة: "هناك كثيرون من الأجانب المعدمين ينتظرون أقل فرصة للارتزاق، وللحصول على مبلغ يكفيهم للرحيل عن هذه البلاد.. وهؤلاء هم ضالتنا. هؤلاء هم الذين سيقودون شاحناتك يا همفري في أسوأ الطرق وأوعرها.. بل إنهم مستعدون أن يزحفوا على أكفهم وركبهم حاملين الشحنة على ظهورهم من أجل ما يكفي لسفرهم إلى المكسيك. وهؤلاء قوم منقطعون لا يطالبنا بدمهم أحد.. لا نقابات، ولا أقارب، ولا ورثة، ولا اتحادات، ولا حكومة".

هكذا وضع السائقون الذين وافقوا على المغامرة بحياتهم مقابل ألف دولار، وهكذا قرروا قيادة شاحنتين محملتين بالنيتروجلسرين، عبر مسارات صعبة تستهدف تفجير بئر نفط محترقة، والأبطال الأربعة في هذا الصراع بين الشهوة والطمع وخطر الموت أحدهم فرنسي والثاني إيطالي والثالث أسباني والرابع روماني.

تقول الرواية عنهم وعن أولئك الذين يشبهونهم " كان حال القادمين للإقامة في لاس بييدراس شبيهًا بحال جيرار.. مطرودون من الدول المجاورة، يطاردهم ماضيهم، وتضطرهم الحياة إلى عدم التقيد بشيء في سبيل

الحصول على القوت، ولا يستطيعون مغادرة جواتيمالا إلا إلى بلد لا خطر عليهم من تعقب القانون لهم بسبب صحيفة سوابقهم؛ أي في بلد بعيد جدًا مثل المكسيك, أو شيلي.. لا نقود معهم ولا مورد لهم؛ فهم فريسة سهلة للملاريا تفتك بالخلايا الحمراء في دمهم، وللدوسنتاريا, والحمى, والملل وتوابعه من المخدرات والانحلال.. فتتمزق أجسادهم وعقولهم، وتنحط قواهم المادية والمعنوية.. ويظلون متعطلين في انتظار عمل، فليس لهم اختيار لأنهم إما أن يرحلوا أو يموتوا. وهم لا يجدون السبيل إلى الارتحال، وتأبى عليهم غريزة البقاء أن يموتوا؛ ولذا فهم في صراع مستمر بقبضاتهم, وأسنانهم, مع قضبان ذلك الفخ الذي لا يجدون منه فكاكًا، ويملئون الجو بصراخ الشكوى والسخط".

وهكذا يمضي الرجال الأربعة إلى حتفهم، ليلحقوا بمن مات في الانفجار، يأس هؤلاء الرجال، الذين يتم استغلالهم غالبًا، في عالم العمل بدون عدالة، في هذا السياق، الجميع على استعداد للمخاطرة بحياتهم، حتى لو كان هناك أمل ضئيل للغاية. علاوة على ذلك، فإن وصف "الرحلة" الجهنمية للسائقين الأربعة، كما كتبه جورج آرنو هو مزيج رائع ودقيق للغاية من الرصانة والقوة.

ذلك كله يكسب الرواية قيمة فنية تضاف إلى قيمتها الإنسانية.

حسين صلاح الدين

الفصل الأول

لم ينقطع رنين التليفون في حجرة مكتب مدير الأعمال الساكن في أحد الأكواخ الخشبية التي يتكون منها معسكر لاس بييدراس، في جواتيمالا، كان العمال والموظفون الذين أرهقهم العمل يمرون مشدودي الأعصاب, يمرون بين الحجرات بينما الأبواب الدوارة تغلق خلفهم من تلقاء نفسها.

ورفع مدير الأعمال سماعة التليفون:

– نعم.. نعم.. ليلة أمس.. كلا. لم أتوجه إلى هناك بنفسي حتى الآن، فالأنباء لم تصلني إلا في ساعة متأخرة جدًا، راينر في حالة سيئة جدًا.. صدمة عصبية شديدة. إن مسئوليته الشخصية محدودة بطبيعة الحال، ولجنة التحقيق ستبدأ عملها في يوم الأربعاء على ما أظن.. الأقوال التي أدلى بها الأهالي؟ لم يبق من الأهالي على قيد الحياة سوى واحد فقط. سيتم مطابقة روايته بما قاله راينر. وهذا كل ما في الأمر، مجرد حادث طارىء ليس إلا. طبعًا.. لا تقلق فهذه طريقة الصحافة في جميع الأحوال. ولكن ستكون أنت أقدر مني على التعامل معهم.. وأسوأ ما في المسألة أن أربعة عشر شخصا من الأهالي قتلوا في الحادث، وستعتبرهم الصحافة شهداء، ولن يتركونا نستريح لحظة واحدة من أبحاث لجان تأمينهم اللعينة.. المعاشات؟ يجب طبعًا أن تكون أقل ما يمكن.. سأطلبك على كل حال مرة أخرى بعد الظهر.

استغرق مدير الأعمال في التفكير، فالمسألة قذرة.. وإذا نُظر إليها

من جانب مصلحة الشركة، فانهيار راينر جاء بفائدة كبيرة، هو الآن نصف مجنون.. فلو حدث غير هذا وخرج راينر بقواه العقلية سليمة، لكانت وطأة التحقيق عليه شديدة و لكانت مسئوليته ليست محدودة مثلما هي الآن.. وبالتالي ستكون الشركة مسئولة عن الخسائر في الأرواح.

وقطع تيار أفكار مدير الأعمال صوت السكرتير يتحدث في التليفون الداخلي:

– ترنك من تورنتو للمستر راينر فماذا أقول؟

– من المتكلم؟

– أمه يا سيدي.

– أخبرها بإيجاز عن الحادث وأبلغها نص تقرير المستشفى عن ولدها. وأطلب منها ألا تزعجنا باستفساراتها المتلاحقة؛ فنحن هنا شركة الزيت الخام، ولسنا جمعية من جمعيات الأمومة. أطلب منها رقم تليفونه في تورنتو، وإذا مات سنبلغها فورًا.

كانت المهمة ثقيلة على نفس السكرتير؛ فالحادث "طازج" حدث في الليلة الماضية فقط.

والليلة الماضية كانت كأيّة ليلة أخرى من ليالي الأشهر الثلاثة المتعاقبة؛ كان الظلام المخيم فوق حقول زولاكو للزيت الخام حالكًا، لولا تلك الأنوار التي تنبعث من أبراج الاستخراج ومن أجهزة الحفر، لأن العمل كان مستمرًا بنوبات ليليّة، والطاقم الذي يعمل في الوحدة رقم ١٦

كانت عليه نوبة العمل في هذه الليلة، وكان هناك مولد ضخم من طراز الديزل يزود الوحدة بالنور, والطاقة, وحينما تبطيء حركة جهاز الديزل المولد تخفت شدة الأنوار. وفي وسط البرج كانت البريمة الكبيرة تدور بغير انقطاع، وتشق طريقها في قوة وثبات وسط الطين اللزج في أعماق البئر، ولكنها لا يمكنها أن تستمر في العمل من غير أن يتوالى تبريدها بماء تجلبه سيارتان كبيرتان من الخزانات.. فهذه البريمة الجبارة تدور بسرعة مائة دورة في الدقيقة، ولهذا تغوص في الأرض بمعدل ثابت يصل إلى خمسين قدمًا لكل نوبة دوران، وكل نوبة مدتها خمس وعشرون دقيقة.

ومن حول جهاز الحفر، كانت تلمع في الأضواء الباهرة صدور عارية سمراء ذات حمرة نحاسية يتصبب منها العرق.. إنها صدور عمال من الأهالي في عروقهم دماء نصف هندية، وعلى رءوسهم خوذات من الألمونيوم.. يذهبون ويجيئون بلا انقطاع ليزودوا الآلة الهائلة بالماء والزيت الثقيل.

وبمجرد أن تنتهي الخمس والعشرون دقيقة، وتكون البريمة قد انغرست بطولها كله في باطن الأرض، تتوقف الآلة الدوارة ويفصل الرأس عن البريمة إلى أن تبدأ نوبة جديدة في موضع آخر.

والحقيقة أن الأجهزة في هذه الوحدة رقم ١٦ كانت من نوع بدائي.. فالأنبوبة الجديدة تثبت في موضعها من الأرض بقوة عضلات خمسة عشر رجلاً من رجال الوحدة العاملة هناك. وكان لابد من قيام "بهلوان" من العمال بالتسلق بواسطة الحبال ومحاولة اقتناص الأنبوبة وهي مائلة كي يدخلها في فم الأنبوبة القديمة المغروسة في الأرض، لا تكاد تظهر منها إلا

حافتها.. وعليه بعد أن تلتئم الحافتان أن يسند الأنبوبة القائمة إلى صدره، ويتحمل ثقل الأنبوبة الفولاذية على عضلاته، وعلى الحبال التي تربطه بقمة البرج، فتغوص تلك الحبال في جسمه وتدميه.. ولكنه يثبت في مكانه لعلمه أنه إذا أخطأ فتسحقه الأنبوبة. وحينما يتأكد من التئام الحافتين، يطلق إشارة إلى المهندس فيركب الرافعة التي تحرك جهاز الحفر، فتدور بسرعة منتظمة لتغوص في داخل الأنبوبة القديمة. وعندئذ يترك الرجل الحبال، ويتسلق درجات البرج هابطًا إلى الأرض.

وكلما انقضت عشرون دقيقة، وتم تثبيت أنبوبة جديدة، يتناول المهندس عينة من الطين ويفحصها تحت أحد مصادر الضوء القوية ليتبين مدى تماثلها وكثافتها.. وإذا دعت الحال قام بتحليلها بواسطة أدوات قليلة مصفوفة على أحد الرفوف الملحقة بمقصورة قائد جهاز الديزل، فإذا أوغلت آلة الحفر في داخل وسط أشد جفافًا مما ينبغي، فالبريمة ستسخن شيئًا فشيئًا ثم تتحطم فجأة، كما يحدث في الآلات المصنوعة من الفولاذ، وفئات الحطام ستقذفه سرعة الدوران الكبيرة إلى أعلى؛ فيقتل الرجال المحيطين بالآلة, أو يحطم المضخمة وقد يقلبها على الأرض.

ومن جهة أخرى، إذا كان الطين أقرب إلى السيولة فجهاز الحفر يخترق جيبًا فارغًا قبل الوصول إلى مستوى الزيت الحقيقي، وفي هذه الجيوب تكثر الفقاعات الغازية القابلة للاشتعال.. وأيّة فقاعة منها يمكن أن تصعد إلى أعلى أثناء دوران البريمة صعودًا سريعًا مفاجئًا يتهدد الجهاز الضخم كله بالانقلاب، وقد تشتعل الفقاعة إذا وجدت أقل شرارة في طريقها من الشرارات التي تصدر عن الآلة، أو عن احتكاك آلات الحفر

الحديدية الساخنة، أو لأي سبب آخر.

لذلك كان المهندس راينر قلقا فالأمور ليست على ما يرام.. فقد ظهرت فقاعات صغيرة حول فوهة الحفرة لمرتين. ولم يجد الجرأة على اختبارها بشعلة نارية؛ إذ خيل إليه أن رائحة البترول تنبعث منها، ولكنه لم يكن متأكدًا من ذلك، لأن الريح التي تهب دائمًا عبر السهل المنبسط، كانت محملة دائمًا برائحة البترول الخفيفة.. فمن يدري مصدر هذه الرائحة؟ هل هي رائحة الفقاعات أو رائحة النسيم المعتادة؟

وعلى مسافة غير بعيدة، كانت منارة أناكو ترسل ضوئها فوق السهل، فتتحول الأشباح في ظلام الليل إلى هياكل من النحاس.

ووقف راينر ينتظر في قلق عودة سيارة الماء الثانية التي ذهبت منذ فترة لتجلب الماء من أقرب مستودع.. والسيارة الموجودة أوشكت على الفراغ. ومع هذا لم يقو على إيقاف العمل، لطموحه إلى الفور بعلاوة سرعة الإنجاز. وركب سيارته الخفيفة وذهب ليرى بنفسه ماذا حدث لسيارة الماء.

وبسبب استواء خط الأفق الذي كان على ارتفاع متساوٍ في جميع الجهات، كان السهل يبدو منبسطًا تمامًا. وبمجرد أن اختفى النور العلوي في آلة الحفر، تعذر على راينر أن يرى الطريق الذي لا يُعرف وسط الرمال ليلاً إلا بتعقب آثار عجلات السيارات.. وهذه الآثار كانت تتشعب أحيانًا في طريقين، فلا يدري أيهما يسلك. فأوقف سيارته الخفيفة ونزل منها ليحاول حل المشكلة على ضوء مصابيحه الأمامية.

وكانت سيارتا الماء الضخمتان من طراز واحد، ولهما إطارات

للعجلات من نوع واحد، فبدت الآثار في الاتجاهين متشابهة تمامًا.. وبذلك وجد أمامه اتجاهين.

– ماذا صنع هذا المغفل؟ إن الاتجاه الصحيح إلى اليمين، فلماذا اتجه إلى اليسار هذا المجنون؟

وأدار محرك السيارة مرة أخرى، وانطلق في الاتجاه الأيسر بحثًا عنه.. واستمر في ذلك الاتجاه لوقت بدا له طويلاً جدًا، وأخيرًا وصل إلى مستودع الماء، حيث كان ينبغي أن يجد السيارة، ثم أخذ يجوس خلال الظلام بنور السيارة، وبنور مصباح الجيب؛ فلم يستطع أن يرى شيئًا حتى ولا المضخة التي تستخرج الماء، مع أنه كان يسمع صوت الآلة وهي تعمل آتيًا من بعيد.. فأخذ يسب ويلعن وزادت حرارة الليل.. وقميصه المبتل بالعرق ينقل القشعريرة الباردة إلى ظهره كلما هب عليه النسيم، مع أن هذا النسيم نفسه كان دافئًا.

وأشعل سيجارة ونظر إلى ساعته، فتبين أن الماء سيكون ضروريًا لآلة الحفر في مدى أقل من عشرين دقيقة.

وأدار محرك سيارته الخفيفة مرة أخرى، وأخذ يبحث في المنطقة.. وبين لحظة وأخرى كان يتوقف ويرهف أذنيه، فيسمع صوت المضخة وهي تعمل, ولكنه لا يستطيع أن يتبين مكانها.

وكانت آثار العجلات في طريق العودة تسير في رمال ناعمة تنغرس فيها العجلات، وفجأة توقفت السيارة تمامًا، وسمع اصطدام كتلة من الرمال بقاع خزان التبريد، ووجد العجلتين الخلفيتين مغروستين في الرمل.

وهذا يحدث هنا كثيرًا، ولذا كانت سيارته الخفيفة مزودة برفش مثبت إلى جانبها، له مقبض طويل وهو ماساعده على التخلص من الرمال، ثم دار حول العجلات الأربع فنظفها.ويحيط كل عجلة بحشائش جافة, ولم يكن هذا العمل مألوفًا لديه، فكان يؤديه بارتباك وتسرع، فزاد ذلك من تصبب العرق وتضييع الوقت. وقبل مضي عشر دقائق، كان قد فرغ من كل شيء، وبدأت سيارته تتحرك من جديد.

وبعد مائة ياردة تقريبًا، لحقت به ناقلة الماء ووقفت بجواره، فصاح بالسائق:

– أسرع بحق السماء.. فلم يعد لديهم شيء من الماء تقريبًا.

وهز السائق رأسه، واستأنف سيره من غير أن يجيب.. وكان العرق يتصبب من خديه بصورة مستمرة. وغمغم راينر، وهو يعود إلى سيارته الخفيفة قائلاً لنفسه:

– لماذا اشتدت الحرارة هذه الليلة بهذا الشكل بحق الشيطان؟!

ولم يستطع أن يلحق بالناقلة الكبيرة ذات المحرك القوي... وكان الغبار الذي يثور خلفها يكاد يعميه ويطمس حلقه، فتوقف كي يترك للناقلة فرصة الابتعاد، وشعر بشيء من الهدوء، فاستخرج من جيبه سيجارة أخرى أشعلها، واستنشق منها نفسًا عميقًا في ارتياح.

وبطريقة آلية، تحسست أصابعه الأزرار التي أمامه، ثم حرك زرًا منها، فانبعثت من المذياع موسيقى صاخبة. وجعل يصغي لصوت مغنٍ زنجي، كان قد أحيا منذ ثلاثة أسابيع حفلة سمر في مقصف شركة الزيت الخام:

"لابد للأسماك أن تعوم وتسبح..

"ولابد للطيور أن تحلق..

"ولابد لي أن أحب إلى أن أموت..

"لا حيلة لي فيها ولا مفر.."

وفجأة أقفل المذياع.. واستولى على الليل صمت ثقيل ناعم كأنه المخمل الأسود.. صمت الصحراء. وضغط راينر زر محرك السيارة مرة ومرتين بغير جدوى.. وعلى ضوء السيجارة المشتعلة، نظر إلى مؤشر الكهرباء فوجده لا يتحرك، وعلى الفور شعر أنه غريب في تلك الصحراء المقفرة، وأفزعه ما لمسه من عداء في تلك الأشياء الخالية من الحياة.

فغادر السيارة، ورفع غطاء مقدمتها، وبمساعدة مصباح الجيب فحص كابلات البطارية فبدا له كل شيء على ما يرام.. والبطارية نفسها لم تكن "ميتة", ومع هذا فالمحرك لا يدور.

نسى أنه مهندس ذو خبرة بحيث أن آلات فورد وأجهزته الكهربائية يجب أن تبدو له مثل لعب الأطفال، ولكنه وقف يتمتم باللعنات، واستغرق شوق مفاجئ للعودة إلى طفولته الأولى، حيث كان صبيًا مدللاً يجوز له أن يغضب عندما ترفض الأشياء أن تطيعه.

وبغضب وحركات متسرعة عنيفة، راح يفتش عن موطن العيب في الاتصال الكهربائي.. فاستغرق أكثر من عشرين دقيقة، ثم اتضح له أن العيب الغامض كان عبارة عن قطع في السلك داخل الغلاف العازل، ولم

يكن في صندوق الأدوات قطع غيار أو أسلاك.

وضرت بقدمه باب السيارة الخفيفة وأغلقه، ووقف جامدًا لا يتحرك لبرهة.. ثم مد يده من داخل النافذة وتناول سجائره والثقاب من فوق المقعد. وأضاء مصباح الجيب الذي ثبته في حزامه، فجعل النور المنبعث منه يهتز أمامه وهو يسير بمفرده في الظلام. فأمامه خمسة أميال من الرمال الناعمة، لابد أن يقطعها سيرًا على قدميه، وأصعب ما في الأمر، أنه مضطر بصفة مستمرة إلى تثبيت عينيه في الأرض حتى لا يفقد آثار السيارة في الرمال، فتبتلعه الصحراء المظلمة.

وكان يتنفس تنفسًا عميقًا، ووجهه معرض للنسيم الدافئ، والنجوم والشهب تتلألأ بغير انقطاع في صفحة السماء. وهو قد تعود في صباه، كلما رأى نجمًا, أو شهابًا ينتقل من مكان إلى مكان أن يرفع وجهه إليه ويغمض عينيه ويتفوه بأغنية..ولكنه الآن لا يستطيع أن يصنع هذا، لأنه سيقطع نفسه عن كل عمل في الليل إذا اتبع النظام.. فما أكثر النجوم المتنقلة في ليل الصحراء الحار!

واستمر راينر في طريقه سائرًا وهو يحاول أن يحسب –عن طريق ساعته– المسافة التي مشاها.. ثم ازداد قلقه وتوجسه، وقد مرت الدقائق دون أن تلوح لعينيه الأنوار التي فوق برج الحفر، ولا أنوار ناقلة الماء المقبلة. وملأت الخيالات والأوهام دماغه بصورة مقلقة، فهؤلاء الأهالي أنصاف الهنود بمفردهم هناك عند جهاز الحفر، ورئيسهم لديه بالطبع تعليمات محددة، ولكن ليس من المضمون أن يتبعها بدقة أو ألا يتلاعب

بسرعة آلة الحفر.. أجل إن هذا الرئيس قديم في عمله، وقد تعود روتين العمل.. ولكن من غير المعقول أن يترك مثل هذا الموقف الدقيق لرئيس عمال وحفنة من العمال أنصاف الهنود.. كانت حماقة منه أن يغادرهم.

وأخذ انعكاس أضواء منارة إناكو يخفف من وطأة الظلام، ولكنه لم يفد راينر كثيرًا في توضيح الطريق.. أما آلة الحفر الجبارة، فكانت في منخفض.. ولا يمكن أن يرى المرء أنوارها إلا وهو فوق مرتفع.

وفجأة وقف راينر في مكانه لا يتحرك.. فقد اكتشف أن آثار عجلات الناقلة لم يعد لها وجود أمامه أو خلفه، وآثار أقدامه لا تظهر في هذا الرمل الناعم السريع الحركة، ولا في المواضع الجافة المتماسكة منه مثل الموضع الذي يقف فيه الآن. لقد ضل طريقه كأي مغفل، وهو يحملق أمامه بحثاً عن الأنوار غير ناظر إلى الأرض، وجلس في مكانه يفكر في ورطته.

وفجأة أيضًا ظهر نور قوي، أثبت له أنه لم يكن بعيدًا عن غايته كل البعد.. وعلى أثر ذلك الوهج الشديد، سمع قصفًا مدويًا مثل قصف الرعد.

لقد طارت آلة الحفر الضخمة في الهواء.

وقل وهج الضوء الشديد، ولكنه لم يتلاشى نهائيًا، وتطايرت شظايا معدنية من أثر الانفجار، ومرت وهي تصفر صفيرًا حادًا من فوق رأسه، فذكرته بالأيام التي قضاها في الحرب.. واستغرقه الشعور بمسئولية عن هذه الكارثة التي وقعت، فأخذ يجري كالمجنون.

وكان الفضل للصدفة وحدها في أنه جرى في خط مستقيم، لأن

الرعب الذي استولى عليه كان أكبر ولا شك في أن يرى ما حدث. كان يجري في جنون إلى أن صدمه شيء ثقيل صدمة قوية في صدره، فترنح بشدة ثم سقط على الأرض.. ولكنه نهض بأطراف ثقيلة، وجعل يبصق التراب والرمال من فمه، واستأنف الجري وشعر برئتيه تنفجران، واضطر إلى التماس أنفاسه، فانبطح على وجهه كما كان يفعل تحت وابل قنابل المدفعية، وشرع يحفر الأرض بكل عضلات جسمه كي يتوارى في داخلها من غير أن يدري, وساعده ذلك على استرداد أنفاسه وقواه؛ فشرع يجري مرة أخرى، ولم يعد يفصله عن مسرح الفاجعة سوى ميلين. وهذا يقتضيه ساعة من الزمن تقريبًا، وأخيرًا عندما وصل إلى غايته، لم يكن راينر هو ذلك الشاب الذي يعرفه زملاؤه؛ مرحًا, طويل القامة, لطيف المعشر, كثير التهريج في جلسات السمر بمقصف شركة الزيت الخام.. بل وقف هناك ينظر في ارتياع إلى نافورة اللهب الضخمة التي تنبعث هادرة من حطام جهاز الحفر الجبار.

كان راينر الجديد رجلاً يغطي وجهه الوحل والدم، مصابًا برضوض في عقبيه، وقد أجهد قلبه الجري الطويل في الظلام، يبصق الدم من فمه وهو لا يدري إن كان مصدر هذا الدم جرح في فمه, أو إصابة في داخل جوفه.

كانت النار فظيعة تندلع اندلاعًا متزايدًا، والنسيم يطوح بها في اتجاه الغرب. وكان النسيم قويًا في هبوبه في هذه اللحظة، ولكن صوت الريح تلاشى في هزيم تلك النار التي كأنها عمود من السخط الجهنمي صاعد نحو السماء، والشظايا المعدنية تتناثر منه في الجو، والآلة الجبارة راقدة على جنبها وقد شطرت نصفين.. وهشمت في سقوطها آلة تكثيف الهواء

والمقاعد الخشبية التي وضع الرجال فوقها ملابسهم وآنية طعامهم قبل شروعهم في العمل. وأكلت النار هيكل البرج فتركته مائلاً ملتويًا، ثم أثرت الحرارة في الحديد تأثيرًا غريبًا آخر.. فتستقيم أجزاء ملتوية منه كأن البرج يهم أن ينتصب قائمًا ويعود إلى العمل.

والناقلات التي كانت مصفوفة على مسافة صغيرة، شبت فيها النار أيضًا، وانفجرت خزاناتها.. و الأطنان الخمسة من الماء التي تناثرت فوق الزيت المحترق والجازولين، أتت بأثر عكسي.. فزادت ألسنة النار اندفاعًا وشدة. وكانت هناك نافورات أخرى صغيرة من اللهب، أكملت صورة المأساة المروعة في عيني راينر.

ووقف اثنان من العمال المحليين، وقد تعلق كل منهما بكتفي الآخر يصرخان مرتاعين، وهما يحملقان في الحريق.. يصرخان بكلمات لا معنى لها، وإنما هي صيحات بلهجة الهنود تعبر عن الموت. ولم تكن به حاجة إلى فهم مفردات تلك اللغة ليتبين معنى ما يتفوهان به، فقد اختفى من أخواتهما ثلاثة عشر رجلاً.. والاثنان الباقيان مثله يقفان على حافة الجنون.

ولم يكن هناك أدنى تفكير في الاقتراب من الفوهة التي يرتفع منها عمود النار، وكأنه اسطوانة جهنمية دوارة متناسقة الشكل، ولكن كان تفكير راينر وهو تحت سلطان الفزع في هذين الأسودين الباقيين على قيد الحياة. وراعه أنهما سيفضيان إلى لجنة التحقيق بأمر تغيبه عن مكان العمل عندما وقعت الكارثة.

لقد مات ثلاثة عشر رجلاً بالفعل.. وجعلته تلك المجزرة الصغيرة يحس

بإحساس الحرب, ويفكر بعقلية الحرب؛ فشعر أنه من اليسير عليه جدًا أن يتخلص من هذين الأسودين الباقيين؛ فلا يبقى على قيد الحياة سواه، وعندئذ سيكون حرًا في الإدلاء بأية بيانات يشاء.

ولكن شيئا من تأنيب الضمير–أو من ضعف العزيمة ووهن الأعصاب– حال بينه وبين الإقدام على قتلهما.. لقد كان دماغه على كل حال مشحونًا بالضباب, يفتقر إلى الوضوح.

واقترب منهما وأخذ يحملق في وجهيهما، فتبين أنهما مصابان بحروق شديدة يبدو أنهما لم يقطنا إليها تحت وطأة المفاجأة.. إن حواجبهما ومساحات من فروة شعر الرأس لم يعد لها وجود.

لم يبكيا.. ولكن ربما كان ذلك لأن الأسودين لا يعرفان كيف يبكيان. وحاول راينر أن يتحدث إليهما باللغة الجواتيمالية:

– ما الذي حدث؟

ومن صمتهما اتضح له أنهما لم يسمعاه.. كانا يفكران في لاشيء، ضالين في متاهة وسط, بين موت رفاقهما وحياتهما.

وبعد مضي ست ساعات، أخذت صفارة حادة تنطلق في صيحات متلاحقة سريعة.. فالمهندس المكلف بوحدة العمل رقم١٩ سمع الانفجار، ثم رأى النار، واتصل تليفونيًا بالمركز الرئيسي في لاس بييدراس؛ وهذه الصفارات هي صفارات قافلة من نقالات شركة الزيت الخام. ومن هذه النقالات نزلت كوكبة من رجال الإسعاف والإنقاذ كان مجموعهم سبعة رجال في خوذات وثياب من مادة الاسبستس غير القابلة للاشتعال.

ووجدوا راينر المهندس المشرف على الوحدة رقم ١٦ جالسًا القرفصاء على الرمل بين جثة عامل أسود ميت وجسد عامل آخر يبدو أنه في حالة احتضار، وكان راينر يغمغم بلا توقف بما يشبه الهذيان:

– يا إلهي! يا إلهي! ماذا فعلت؟

خلاصة هذه الأحداث هي التي أفضى بها سكرتير مدير الأعمال إلى مسز راينر العجوز. وكانت بطبيعة الحال خلاصة مركزة للغاية استغرقت منه أكثر من سبع دقائق.. وهو طول الوقت يفكر في عقله الباطن كم ستتكلف هذه المحادثة الطويلة.

وأخيرًا وصل إلى النقطة الشائكة في الموضوع كله... وصل إلى التقرير الطبي الذي أصدره المستشفى، وقال متلعثمًا:

– دقيقة واحدة من فضلك يا مسز راينر إلى أن.. ابقي على الخط من فضلك.

وأخذ يقلب أمامه مجموعة من وثائق حمراء مكتوبة على الآلة الكاتبة، وكل منها يحمل كلمتين: "الجثة مفقودة" وكانت هذه طبعًا تقارير كل واحد من العمال الوطنيين الذين ماتوا نسفًا. وها هو ذا تقرير مطول نوعًا ما.. "حروق من الدرجة الثالثة مع كسر مضاعف في الجمجمة بجسم صلب." وهذا طبعًا التقرير الذي صدر عن العامل الأخير الذي مات بعد وصوله إلى المستشفى بقليل.

وكان صوت السيد العجوز يأتيه هادرًا بلا انقطاع من المسماع الملقى فوق المكتب إلى جواره, ولكنه لم يستطع أن يفهم كلمة من كل ما قالته.

ولم يحاول هو أن يفهم أو يتتبع ما تقوله وهو يفتش عن التقرير الخاص بابنها. وأخيرًا وجد ما يريد.. فتناول المسماع. وقال:

– مسز راينر؟ هذا هو ما جاء في نص التقرير الطبي يا مسز راينر. هل أنت مصغية؟

– نعم.. نعم...

– ارتجاج في المخ مع إصابات داخلية, وصدمة عصبية حادة، الحالة خطيرة.. سأعيد العبارة الأخيرة.. الحالة خطيرة. هل سمعت ما قلت يا مسز راينر؟ أظن أنك يستحسن أن تعطيني رقم تليفونك كي أتمكن في حالة.. في حالة.. أتسمعينني يا مسز راينر؟ ما هذا؟ مسز راينر.. مسز راينر..

أغلق التليفون، وقد ظهر عليه الضيق. وقال للكاتبة على الآلة التي تجلس قبالته:

– لعلها غشي عليها، فإذا طلبت مرة أخرى فأرجو ألا يضايقك أن تقومي الرد عليها.

الفصل الثاني

تحتاج الرحلة إلى مسرح الكارثة إلى قرابة عشر ساعات، سواء قطعت الطريق إليها بالسيارة الجيب أو بسيارة الإدارة العامة. وقد وجد مدير الأعمال ومعاونوه عناءً كبيرًا في أن يحتفظوا بأفكارهم في مستوى الأحداث، لما أصاب ظهورهم وأفخاذهم من رضوض شديدة بسبب المطبات المتوالية.

وقبل ذلك بساعات كثيرة، كانوا قد وصلوا إلى الموضع الذي يعرفون فيه وجهتهم, مسترشدين بعمود الدخان الغليظ الكثيف الذي امتد باتساع الأفق.

وعندما وصلوا في النهاية إلى المكان الذي يمكنهم من المعاينة، رأوا شعلة اللهب الضخمة نفسها التي مازالت منذ الأمس تقتات في نهم بقايا الهيكل الفولاذي الضخم.

وقفز أوبرين مدير الأعمال من سيارة الإدارة في اندفاع شاب لم يلبث على الفور أن ندم عليه، لأن سلسلة ظهره آلمته ألما شديدًا، كما أن إحدى ساقية كانت قد أصابها الخدر أثناء نتيجة طول الطريق، فتخاذلت حتى كاد أن يسقط. وقال وهو يتطلع إلى اللهب:

– لا دخان بغير نار.

وكانت النار بحسب تعبير الهنود من سكان المنطقة غاضبة، فحطمت

في هياجها كل شيء، ولم تبق شيئا من جسم آلة الحفر. ووقف الرجال السبعة على مسافة تزيد على المائة متر ينظرون إليها وقد رفع بعضهم يده ليحمي بها وجهه من الوهج الشديد.

أما رئيس قسم التأمين؛ وهو رجل أحمر الوجه, قوي البنية يقترب من بلوغ الأربعين من عمره، فأخرج من جيبه دفتر مذكرات ليدون فيه ملحوظاته. أما أوبرين أقوى أعصابًا من الباقين، فاستطاع أن يلقي على الكارثة نظرة هادئة. وقد أثار سلوك مندوب التأمين روح الفكاهة لديه، فقال له:

– للأسف لن تستطيع الاقتراب أكثر من هذا لتبحث عن بصمات الأصابع.

والتفت إلى سائر معاونيه، وقال لهم:

– لقد رأيت ما فيه الكفاية..

وأحمر وجه رجل التأمين فوق إحمراره المعتاد، ولكنه لم يعلق ولم يقل شيئًا، بل استمر في تقدير المسافات وتسجيل الأبعاد بعناية فائقة. في حين عاد أوبرين إلى السيارة، وتناول إحدى الصحف ليطالعها.

وكان انبعاث النار على شكل عمود يندفع إلى ارتفاع كبير ولا يتبدد، بل يختفي عن الأنظار وسط سقف أسود من الدخان الكثيف. أما ألسنة اللهب الصغيرة التي تتساقط منه، فكانت أشبه بانفجارات مصغرة لأن العمود الضخم المتوهج كان مستقلاً بوجوده الحريص على الارتفاع في كبد السماء في هياج جنوني وإصرار خارق للطبيعة.

وبعد قليل، غادر أوبرين السيارة، وعاد إلى حيث يقف رجاله، وكانت الأسئلة والتحقيقات لا تثير اهتمامه، ولذلك عول في المستقبل على ألا يشترك في أية عملية تحقيق. فهو قَبل كل شيء رجل نضال، وكانت غريزة النضال عنده في هذه اللحظة في أشد حالات الثوران. فهو ناقم على تلك النار، لا لأنها ألحقت به أذى.. فهو سيحصل على مرتبة باعتباره مدير الأعمال في جواتيمالا مع علاوة للمنطقة الاستوائية في أول كل شهر بانتظام، سواء أخمدت النار أو لم تخمد.. ولكنه كان ناقمًا على النار بحكم مزاجه وتكوينه كمقاتل تثير العقبات والمصاعب والظروف المعادية في الكون كله. ولولا هذا الصنف من الرجال لظل العالم إلى يومنا هذا راسفًا في ظلمات العصر الحجري.

وقال أوبرين:

– لا يوجد طريق معبد يؤدي إلى الخندق, ولا بد لنا من حفر خندق ليس في مهب الريح، وفيه عدة انحناءات تكفل الأمان عندما نقترب من اللهب.

فقال سكرتيره:

– ولابد أن نسرع، لأن الريح سيتغير في مدى ثلاثة أسابيع.

وكان أوبرين يعامل سكرتيره طيلة هذا اليوم ببرود؛ إذ لم يعجبه كثيرًا الأسلوب الذي عالج به موضوع والدة راينر. أما الآن فقد نظر إليه نظرة مودة لأنه توسم فيه بارقة فطنة وقال:

– حسنا.. يجب إذن أن نعود.

وعادوا إلى السيارات.. وطيلة رحلة العودة، كان رجل التأمينات منصرفًا إلى إعداد تقريره.. وكان يحاول أن يصوغه بحيث يلقي أقصى ما يمكن من ظلال عدم الثقة على ذلك الأيرلندي الأحمر الشعر.

أما أوبرين فلم يكن يفكر في شيء سوى خطته لإطفاء النار. وجعل يقلبها في دماغه ويعيد تقليبها بعناية.. وتمثل أمام مخيلته منظر خبراء الإطفاء في الثياب المضادة للاشتعال وهم يتقدمون إلى أصل ذلك العمود الجهنمي بحذر شديد ليقوضوا أساسه.

وهناك بساطة مدهشة في طريقة إطفاء أعمدة اللهب التي تندلع في منابع الزيت.. إنك تنفخ عليها ببساطة كما تنفخ عود ثقاب مشتعل فينطفئ. ولكنك في هذه الحالة يجب أن تنفخ نفخًا قويًا جدًا، وهذا النفخ القوي لا يمكن أن يصدر إلا عن ضغط هائل، وهذا الضغط الهائل لا تحدثه إلا المتفجرات من نوع خاص.

وغادرت السيارات الهضبة والسهل الواسع الذي تتناثر فيه مائة من أجهزة الحفر، ثم بدأت السيارات تسير في طريق هابط ممهد يقودها إلى لاس بييدراس. واستمر هذا الطريق نحو خمسة عشر ميلاً، ولكن الانحدار كان شديدًا لا يقل في مجموعه عن أربعة آلاف قدم يكتنفها الضباب، منها ألف قدم في مسافة من الطريف لا تتجاوز ميلاً ونصف ميل، وقد سبب هذا الانحدار الهائل وفاة عدد من السائقين حينما كانت شركة الزيت الخام تنشئ خط الأنابيب الكبير لجلب الزيت من أبعد الآبار إلى أرصفة الشحن في لاس بييدراس.

وكانت المقطورات الضخمة العتيقة المنهكة تحمل إلى أجزاء من الطريق شحنات من الأنابيب قطرها خمس عشرة بوصة, وطولها خمسون ياردة, وحمولة كل أنبوبة منها نحو ربع طن. وكانت كل ستين أنبوبة تكوم في أهرامات صغيرة فوق المقطورة. وفي أشد المواضع انحدارًا، كانت القاطرة تسعل وترتجف من المجهود الصاعد، ويبدو أنه لم يعد هناك أمل في التحكم في العجلات المنزلقة. ويرتعد السائق خوفًا ويفكر في القفز، والقفز نفسه كارثة مميتة.. وفي الغالب تهوي المقطورة وسائقها إلى الحضيض. وبعد يوم أو بعد أسبوع تحمل آلات الرفع "الونشات" جثتين من الحضيض إحداهما آدمية والأخرى معدنية، وتذهب بكل منهما إلى مستقرها الأخير. وكانت هذه الكوارث سببًا في ارتفاع أجور العمل ارتفاعا باهظا أثناء إنشاء خط الأنابيب.

ولم يتحدث أحد لا في سيارة الجيب، ولا في سيارة مدير الأعمال؛ بل كانت السيارتان تمران تباعًا في صمت وتعبران القناطر بسرعة كبير, ولا تتوقفان إلا لحظة عند نقط الشرطة الصغيرة. وعلى مسافة ثلاث دقائق من وسط المدينة، كانت تشاهد البيوت مهجورة خالية بعد أن شلت حركة الميناء على أثر استئجاره مدة ثلاثين سنة لشركة الزيت الخام الأمريكية.. فتوقفت حركة التوريد والاستيراد الحرة، وماتت التجارة، وهجر الناس ذلك الميناء إلى موضع آخر يلتمسون فيه الرزق.. وتهدمت المقاصف والملاهي، وتحولت بيوت كثيرة إلى مستنقعات من الطين تفوح منها روائح العفن، فتولت الشركة نثر الزيت الخام في تلك المواضع لقتل الناموس والقضاء على الملاريا. ووسط هذه المستنقعات الصغيرة التي تعترض الطريق

وتفيض فوقه، اجتازت السيارات؛ فألقت رشاشًا أسود قذرًا على جدران البيوت.

وعلى مسافة يسيرة من وسط المدينة، اشترى الأمريكان حيًا بأكمله من الأحياء السكنية، ونسفوه بالديناميت، ومهدوه بآلات بولدزر ضخمة، وجعلوا له سطحًا صلدًا من الأسمنت المسلح، وأحاطوه بسياج، وأطلقوا له عليه اسم معسكر الإدارة العامة.. هناك استقروا وسط المدينة الخربة، وكان أطلالها مخلفات هجوم جوي بالقنابل.. وأكواخ الأمريكان الخشبية في ذلك المعسكر هي الشيء الوحيد الجديد في المدينة الذي يبدو عليه الانتعاش والحياة. وكانت الأكواخ كلها متشابهة مبنية بالخشب على طراز واحد ومطلية بطلاء واحد.

ووقفت السيارتان أمام الكوخ الرئيسي في المعسكر, وكان مدير القسم الطبي خارجًا من المبنى في تلك اللحظة؛ فالتفت نحو أوبرين وقال:

– لقد مات الهندي الآخر.

– ورواينر؟

– إنه في طريقه إلى الموت على ما أظن..

وأطلق أوبرين زفرة لا تدل على الارتياح، وقال لسكرتيره:

– يجب عليك أن تبلغ أمه العجوز تليفونيًا متى انتهي كل شيء.

الفصل الثالث

ارتفعت أصوت الغناء في قاعة حانة "القرصان الأسود".. وهي أشهر حانات ذلك النوع من العلب الليلية الذي ترتاده الحثالة في لاس بييدراس.. فهذه الأغاني هي الأغاني المعهودة في حلقات المصارعة التي انتقلت إلى أمريكا الوسطى من أسبانيا.

كان الغناء ينبعث من حناجر آدمية لا من صندوق من تلك الصناديق الموسيقية المعهودة في الحانات على الطريقة الأمريكية.

وقاعة الحانة واسعة الأرجاء وجدرانها البيضاء مغطاة بصور ملونة وإعلانات سياحية. والبار يقع على يمين الداخل, ومن فوقه صورة حقيقية للقرصان الأسود الذي لم يوجد قط. وفي كل يد من يديه مسدس ضخم، وبين أسنانه سكين ذو حدين، وبين ذراعيه فتاة نصف عارية؛ وقد استخدم الرسام مادة فوسفورية مشعة في تلوين حدقتيه, والفتاة نصف العارية التي يضمها القرصان الأسود بين أحضانه بارعة الجمال، يضج جسدها العاري بالفتنة، وحرص الرسام على تلوين تفاصيل النافر من ثوبها الممزق بألوان حية.

وفي الطرف الأقصى من القاعة خمس مقاصير محجوبة عن الأنظار بستائر صارخة الألوان، وفيها كانت تمارس تجارة الرقيق الأبيض التي اشتهرت بها حانة القرصان الأسود. وفي هذه اللحظة بالذات كانت سلع

هذه التجارة من الفتيات، جالسات وراء مائدة طويلة من خشب داكن.

ولم تكن بين أولئك الفتيات واحدة تتميز بالجمال سوى ليندا؛ التي تنتمي إلى جيران المهرب السابق. وهي سمراء ذات جسد يجمع بين اللدانة والتماسك, وتمثل بشعرها الأسود الناعم وبشرتها المخملية البضة النموذج الكامل للمرأة الخلاسية التي تختلط فيها الدماء البيضاء بالدماء الحمراء.

وفي هذه الساعة، كان المكان مقفر, وفي الخارج كانت شمس الضحى الحارة ثقيلة الوطأة على المدينة وشوارعها.. وبعد قليل، عندما تدق الساعة إحدى عشرة دقة، يخرج الرجال من أرصفة الميناء جماعات ويدخلون إلى الحانة ليجددوا قواهم المنهكة، بأكواب الشراب المحلي, ورائحة اللحم الأنثوي، ومنهم من يسمح لنفسه في تلك الساعة أن يستجيب لإغراء لمحة من ساق بنية اللون تبرز من شق في الثوب، أو مشية متأرجحة تستعرض اللحم المكتنز. عندئذ تتجه المرأة به نحو واحدة من المقاصير الخمس، وتسدل من خلفهما الستائر الحمراء، ولكن في هذه اللحظة، كانت الحانة مقفرة، وفي أحد الأركان بضعة أشخاص يدخنون الغلايين الطويلة فتتصاعد سحب ثقيلة من الدخان.

وأمر مخدر "المرجوانا" عجيب حقًا.. فكل ما تحتاج إليه هو حفنة صغيرة منه، ثم تغلق عينيك، وإذا باللحم الذي وقع اختيارك عليه رهن إشارتك، فيمكنك بعد ربع ساعة من التدخين أن تكون هتلر وهو يرقص رقصة الانتصار على الشرفة الخارجية لقصر شيو، أو عشيقًا لريتا هيوارث فكل ما عليك هو أن تتمنى وتختار والعواقب مأمونة، لأن ما من مغامرة

تحلم بها تنتهي بك إلى الانتحار أو إلى التصادم.. فالنهايات الفاجعة لا تحدث إلا في عالم الحقيقة، أما في دنيا الخيال فتستطيع أن تكون عاشقًا لا يعرف التعب, ولا يحتاج إلى الراحة مهما تعاقبت حلقات الغرام. وحينما تفيق من حلمك في النهاية لا يكلفك العود إليه سوى التدخين مرة أخرى.

وفي هذا اليوم بالذات، كان المدخنون في الحانة قد اختاروا لحلمهم الذهبي مباراة من مباريات مصارعة الثيران؛ وفي حماسة المباراة الوهمية، ارتفعت أصواتهم بالأغاني, وأكسب المخدر تلك الأصوات رنة غريبة لأنه قصر أنفاسهم، فانتزع منهم بين لحظة وأخرى صيحات تصدر على غير انتظار.

فتحولت المائدة المستديرة التي صنع قرصها من الأسمنت لا من الرخام إلى ساحة ضخمة مستديرة غطيت أرضها برمال ذهبية اللون. وحول الساحة ألوف من المشاهدين لولا المخدر لرأتهم العين منافض لرماد السجائر وأطباقًا وزجاجات كوكاكولا خاوية!

وفي وسط الساحة خيول وثيران ومصارعون. والمصارع الآن هو مانوليتي الذي سقط صريعًا في ساحة المصارعة منذ عامين بقرني ثوره الثامن بعد المائة.. مانوليتي الذي لم يزل البطل المعبود لهواة مصارعة الثيران. وهؤلاء "المساطيل" يعتقدون فعلاً أن المباراة قائمة، وتقلباتها هي التي تنعكس على وجوههم بألوان من القلق, والتوجس, والأسف.

وصاحب الحانة وهو أوروبي أصفر السحنة اسمه روبرتو هرنانديز يحدجهم بنظرات الاستياء، ويكاد ينفجر غضبه لولا أنه يخفي مشاعره تحت

قناع من الصبر المتكلف. وجفف العرق المتصبب من وجهه اللامع بخرقة تستخدم لتجفيف الأطباق، وزمجر قائلا:

_ يا لهم من حثالة عجيبة الأصناف!

وكانوا خليطًا عجيبًا حقًا.. فاثنان منهم خلاسيان من أنصاف الهنود، هزيلا الأجسام، وشعرهما الأسود الخشن يلمع كأنه مطلي بالورنيش، مع أن أكبرهما فقد جزءًا من شعر رأسه، والاثنان لهما شارب على الطراز المغولي، وينم شكله عن القسوة. والثالث رجل أبيض في نحو الستين من عمره، ولم يبق منه إلا هيكل عظمي, وجهه كثير التجاعيد. وشعره أبيض, ووبين الحين والحين تنتابه تقلصات ورجفات تحمله على الاهتزاز كريشة في مهب الريح.. وعيناه غائرتان تحت حاجبين كثيفين.. ومن يتأمل هذا الرجل يجده فريسة لنوع من الصراع، فهو يسعل، ثم يضحك، ثم يقول خمس كلمات أو ستًا، ثم يلوذ بالصمت فجأة.. وتسترخي ملامح وجهه، ويختفي من ملامحه كل تعبير. وبعد فترة يعود في دورة سريعة، بحيث لا تستغرق المراحل الأربع أكثر من دقيقة واحدة.

انحنى الرجال الثلاثة بشدة فوق المائدة، وصاح الأوروبي جاك بصاحبيه الخلاسيين:

– هذه ليست مصارعة.. هذه مذبحة.. هيا أيها الثور.. هيا..

وكان مانوليتي موجودًا فعلا فوق ظهر المنضدة، يقتل ثورًا في إثر ثور، ويصفق له عشرة آلاف متفرج يحتلون المقعدين الخاليين بجوارهم حول المائدة.

ولكن صاحب الحانة كان يرى المسألة كلها مثيرة للضيق.. وكانت زوجته، وهي امرأة ظهرت عليها الكهولة، مع إنها لم تتجاوز الثلاثين؛ مشغولة بالدفتر الجديد، وما فيه من حلقات لامعة من المعدن.. وفيما بين مكانها ومكان زوجها، كانت شابة هندية منحنية فوق حوض الغسيل منهمكة في غسل كئوس وأكواب الليلة الماضية.

وظهر على عتبة الباب عميل يرتدي ملابس تدريب رمادية اللون ذات خطوط خضراء، لم يجد متسعًا من الوقت لتنظيف حذائه, ومن حزامه الجلدي يتدلى مسدس ضخم. وعلى كُمّيّهِ مجموعة من النجوم، ومثلها يزين قبعته وكتفيه، فقد كان ضابطًا من ضباط الحرس الجمركي.

ووقف القادم في وسط الحانة، وقال لروبرتو هولنديز:

– طاب صباحك يا معلم, وأنتِ يا سيدتي كم تثير عيناك الساحرتين الأحلام الجميلة في نفسي.. وأنت أيتها الساحرة الصغيرة غاسلة الأطباق كم في وقفتك هذه من سحر.

ولم ينتبه المساطيل الثلاثة لقدومه.. أما هيئة إدارة الحانة الثلاثية، فاهتمت بتحية ذلك القادم الخطير، وهتفوا بصوت واحد:

– طاب صباحك، وأهلا وسهلا يا كولونيل.

وأما النسوة الخمس فتجاهلن دخوله.. فهو مشهور بين الجميع بالشذوذ. وطلب الكولونيل كأسًا من شراب البنش، وأخذ يرشف منه وهو يرمق جماعة المساطيل بهدوء. وقالت ليندا لجارتها:

– إذا استمر هذا الملعون في مطاردة جيرار والتضييق عليه، سأبقر بطنه بسكين.

وهزت جارتها السوداء البدينة كتفها، ولم تجب..

وكان مخدر المرهوانا قد اشتد مفعوله، فأعلن الأوروبي العجوز جاك أنه الجنرال فرانكو.. أما الهندي الأصلع، فاختار أن يكون إيفا بيرون ولما صارح جاك بذلك، بدأ جاك يغازله ويناديه بلقب سينيورا. والهندي يتمنع عليه بكتفيه، ويلح في المغازلة وطلب الوصال، إلى أن غضب الهندي غضبًا حقيقيًا ووثب واقفًا على قدميه. ووقف جاك كذلك وهو يترنح.. وواجه كل منهما الآخر بعداء، وهما على وشك تبادل اللكمات، لولا أن الهندي الآخر أسكتهما بأن صاح:

– أرأيتما هذه المناورة البارعة من مانوليتي؟ إن الثور في هذه المرة من نوع خطير، ولكن مانولتي سيقهره.

وانحنى هرنانديز فوق البار، وقال للخادم الهندي:

– لا بد أن أخرج بمحصول نظير تحمل هرائهم السخيف يا روزا.. اذهبي واملئي لهم أكوابهم. وذهبت الفتاة إلى مائدة الرجال الثلاثة، وقالت وهي تجمع الأكواب الفارغة:

– ماذا تريد أن أقدم لكم الآن يا مسيو جاك.

فاستدار جاك بسرعة ليواجهها، وقد ظهر عليه الغضب الشديد:

– اتركي هذه الأكواب في مكانها أيتها الفاجرة.

وكانت الفتاة قد أخذت في الانسحاب والأكواب في يدها؛ فعاد جاك يصرخ قائلاً:

– ألم تسمعي ما قلت؟ دعي هذه الأكواب مكانها, ودعي الزجاجة الفارغة أيضًا.

والتفت إلى من حوله، وقال في لهجة شاكية:

– لقد أخذت العاهرة الثور.

وفي هذه اللحظة، فطن الهندي الأصلع إلى الكارثة التي وقعت.. وتبادل الرجلان نظرات تدل على الإحساس بالإهانة، وأسرعت الفتاة تلوذ بالبار، وهز الهندي الأصلع رأسه وقال:

– هذا صحيح... العاهرة أخذت الثور.

وتساءل جاك والدموع في عينيه:

– وماذا عسانا نصنع الآن؟ لقد أفسدت كل شيء، كنت قد أصبحت فرانكو، وأنت كنت إيفا بيرون، وكنت قد أوشكت على إقناعك بدس السم لزوجك بيرون كي تصبحي السيدة المطلقة في الأرجنتين، وتكوني عشيقتي، وننشئ إمبراطورية واحدة قوامها أسبانيا والأرجنتين. وإذا بهذه العاهرة ذات الرائحة النتنة الخلاسية تنقض كالصاعقة، وتخطف الثور من بين براثن مانوليتي، فتلطخه العار في أنظار الجماهير. أفي نيتك أنت أن تسكت على هذا؟

وكان كلامه موجها إلى الهندي الثالث، فصاح مستنكرًا:

– مستحيل أن أسكت.. طبعًا مستحيل..

وكان الرجل الأبيض هو أشد الثلاثة هياجًا أما الهنديان فكانا أقدر منه على تحمل تأثير المخدر.. فأخذا يجلسانه في مقعده، لكنه قاومهما بعنف فاضطرا في النهاية إلى أن يتركاه ليعبر عن غضبه كما يشاء.

وتناول جاك كوبًا وضرب به الأرض، وأخذ يهشم الحطام بقدميه.. ثم طارت عبر القاعة علبة سجائر وصندوق ثقاب. وزاد من غضبه اشتعالًا بعد ذلك، فقد قذف القرصان الأسود بمنفضة سجائر ثقيلة أحدثت خرقًا كبيرًا في الصورة.

وهز روبرتو هرنانديز كتفيه واتجه صوبه، فقذفه جاك بكوب، وهو يصيح كطفل مدلل:

– أعيدوا إلي ثوري، وإلا قضيت عليكم.

وانحنى هرنانديز في الوقت المناسب، فتحطم الكوب على الجدار.. وأصابت شظية إحدى أذني ضابط الجمرك. ووقفت النسوة الخمس يرقبن ما يحدث. وتقدم هرنانديز في حزم، ولكن من غير غضب حقيقي، فضرب جاك على فكه ضربتين قويتين، فانهار على الأرض باكيًا.. ثم عاد هرنانديز إلى البار. ومرت دقيقة كاملة قبل أن يدرك ضابط الجمرك أنه جرح، وكان الدم يسيل على علاماته العسكرية فوق كتفيه، فقال وهو منطلق في خطابة بليغة:

– أنت لست في المجاهل الاستوائية أيها الأجنبي القذر.. أنت هنا في وسط مدينة متحضرة.. أتسمعني؟ إنه من حقي أنا الجواتيمالي، إن الدماء

التي تجري في عروقي هي دماء أبطال ٢٤ يونية, و٦ يولية, و٢٤ أغسطس.

ولم يتأثر هرنانديز بهذه الإشارة إلى الأيام المشهودة في تاريخ جواتيمالا.. وقال صاحب الحانة للكولونيل الجريح، وهو يقدم إليه كأسًا من الويسكي:

– اشرب هذا وانصرف.

وأقبلت روزا الهندية الشابة لتمسح بعناية عن وجه ضابط الجمرك بالمنشفة التي تجفف بها الأطباق. وجلست النسوة الخمس في أماكنهن، وارتمى جاك فوق مقعده ينتحب مصرا على استرداد ثوره المسلوب. وفي هذه اللحظة، دخل جيرار صاحب ليندا، وكان يبدو في عجلة من أمره، فلما رأى جاك يبكي أومأ نحوه برأسه قائلا:

– أراه عاد إلى السكر, لا بأس.. لقد جئتكم بأنباء.. إن شركة الزيت الخام بحاجة إلى أيد عاملة.

فقال له هرنانديز:

– هل تبحث عن عمل؟ حقًا إن الأعاجيب في هذه الدنيا لا حصر لها.

ولم يعلق جيرار، بل قال بأنفة:

– إني مهتم بهذه العملية لأن الإعلان يقول إنها خطرة وأجرها مرتفع.

وحملق صاحب القرصان الأسود في وجه جيرار وسأله:

– ما نوع هذه العملية؟

فقال جيرار:

– ليست عندي أية فكرة عنها.. ولكن مهما يكن من شأنها، فسأجدها مناسبة لي، لأني سأحصل على رزمة من النقود وبعدها... الوداع يا لاس بييدراس, لقد حصلت على كل ما أريد من هذه الحفرة الحقيرة التي تسمى جواتيمالا.

وانتقلت عيناه إلى جاك الذي كان يبكي الآن بهدوء.. ثم شملت نظرته القاعة, وضابط الجمرك, ومجموعة الفتيات. وأخيرًا قال:

– هذه ليندا مثلاً.. قضيت ستة أشهر وأنا أحاول أن أخلصها من هذه الأغلال، ولكن دون جدوى، لأنه كان لا بد أن نأكل, إنني مستعد أن أمنحهم روحي في نظير المال الوفير.

الفصل الرابع

وصل جيرار إلى جواتيمالا بطائرة الساعة الحادية عشرة قادمًا من هندوراس. ودخل بخطى سريعة وبغير اكتراث إلى حانة القرصان الأسود، وفي ذلك اليوم أيضًا، كان جاك يبكي متأثرًا بالمرهوانا.. وكان ذلك يحدث له ثلاث مرات في الأسبوع، ونظر روبرتو هرنانديز إلى القادم الجديد من غير أن يبدو عليه أنه يعرفه. وخلع جيرار نظارته السوداء، وقال لروبرتو بكل بساطة:

– طاب صباحك.. ادفع أجرة العربة من فضلك.

ولم يجبه روبرتو بصورة مباشرة، وإنما ذهب إلى الخزينة، واستخرج من درجها دولارًا فضيًا أعطاه للخادم قائلاً لها:

_ أعطي هذا للسائق..

وكان شُح رب حانة القرصان الأسود معروفًا، فاستنتج شهود الحادث أن القادم الغريب يعرف الكثير من خفايا هرنانديز, وكانوا على حق...

استقر جيرار في حانة القرصان الأسود، بعد أن تفاهم مع صاحبها على أساس دفع أثنى عشر دولارًا في اليوم نظير الطعام والنوم. ومع ذلك لم يكن ليروق لهرنانديز على الإطلاق، إلا أنه لم يستطع الاعتراض ومن الوجهة العملية، لم يدفع النزيل شيئًا على الإطلاق، بل كان أجر الإقامة

اليومي مع ثمن الشراب يضافان إلى حساب مفتوح. وقد بلغت جملة الدين ألفين من الدولارات عندما شرعت ليندا في العمل بالحانة لحساب جيرار. وكان إحساسه بها أقرب إلى الضيق، لأنه لم يستجب لعواطفها وإن أظهر براعة في إدارة عملها بحيث اكتشف في نفسه موهبة كبيرة في المهنة مهنة القواد.

ولم يمض وقت طويل حتى فطن جيرار إلى الإمكانيات التي تحفل بها مدينة ذات ميناء بحري مثل لاس بييدراس بالنسبة لشاب مثله، فبحث في البداية عن عمل ثابت يعتمد عليه في معاشه، ولكن حصيلة مثل هذه الأعمال كانت من الهزال بحيث عزف عنها.. فمستوى المعيشة العام منخفض، وأغلب الأهالي يعيشون في حالة من الفقر المدقع، وتعدادهم أضخم بكثير مما يمكن أن يستوعبه العمل اللازم لإدارة الميناء ومتعلقاته. فأصبح التعطل والمجاعة السمتين الدائمتين في ذلك الجزء من شاطئ المحيط الهادي. وتكتمل الصورة هناك بحفنة من المغامرين الجياع، بعضهم مرتزقة حملتهم الظروف الحزبية والسياسية في الدول المجاورة على الهجرة، وبعضهم الآخر بحارة من أصل إسكندنافي في الغالب تركوا أوطانهم ليعيشوا هناك تحت تأثير غواية امرأة خلاسية ووفرة الخمر الرخيصة.. ظنا بأنهم سيرحلون في الباخرة التالية، ولكن الحياة الحيوانية مثل حمأة الطين تستغرقهم فيؤجلون ويماطلون, وحالتهم تزداد سوءًا وانحطاطًا بمرور الزمن.

ومنذ مدة انقطعت البواخر عن المرور بالميناء؛ اللهم إلا ناقلات الزيت الأمريكية التي لا تمكث من ست ساعات ثم ترحل.. ولا تستخدم بحارة ولا عمالاً، فجميع رجالها من الأمريكيين أعضاء اتحاد النجم الذهبي الذي لا يقبل في عضويته إلا الأمريكيين، ومرة في كل عام أو مرتين تأتي سفينة تجارية

من بنما لتمكث أسبوعًا ولا تستخدم أحدًا من الغرباء, وإن استخدمت أحدا فبأجر ضئيل وهذا هو حال الميناء منذ استأجرته شركة الزيت الخام.

كان حال القادمين للإقامة في لاس بييدراس شبيهًا بحال جيرار.. مطرودون من الدول المجاورة، يطاردهم ماضيهم، وتضطرهم الحياة إلى عدم التقيد بشيء في سبيل الحصول على القوت، ولا يستطيعون مغادرة جواتيمالا إلا إلى بلد لا خطر عليهم من تعقب القانون لهم بسبب صحيفة سوابقهم؛ أي في بلد بعيد جدًا مثل المكسيك, أو شيلي.. لا نقود معهم ولا مورد لهم؛ فهم فريسة سهلة للملاريا تفتك بالخلايا الحمراء في دمهم، وللدوسنتاريا, والحمى, والملل وتوابعه من المخدرات والانحلال.. فتتمزق أجسادهم وعقولهم، وتنحط قواهم المادية والمعنوية.. ويظلون متعطلين في انتظار عمل، فليس لهم اختيار لأنهم إما أن يرحلوا أو يموتوا. وهم لا يجدون السبيل إلى الارتحال، وتأبى عليهم غريزة البقاء أن يموتوا؛ ولذا فهم في صراع مستمر بقبضاتهم, وأسنانهم, مع قضبان ذلك الفخ الذي لا يجدون منه فكاكًا، ويملئون الجو بصراخ الشكوى والسخط:

– إنك لا تستطيع أن تستقل طيارة بغير نقود، ولا تستطيع أن تحصل على نقود بغير عمل. ولا تستطيع أن تحصل هنا على عمل، فأنت إذن لا تستطيع أن تستقل طيارة. ولا تستطيع أن تسرق شيئًا من أدوات شركة أمريكية أسندت الحراسة إلى جيش من الغوريلات، دربوها وغذوها بطريقة خاصة بحيث تستطيع أن تقتل رجلاً بضربة من يدها..

وشكرًا لقلب ليندا الطيب، ولمفاتنها الجسدية، فبفضل ذلك استطاع

جيرار على الأقل أن يتقي الإفلاس التام. ولكن الأمور كانت في بدايتها شديدة الصعوبة، فبعد وصوله بيومين فعل ما يفعله كل قادم جديد إلى لاس بييدراس.. زار إدارة المستخدمين في شركة الزيت الخام، فوجد قاعة يعلوها التراب رمادية السقف، بها أربع دكك خشبية على شكل مربع جلس عليها ما يقرب من عشرين من ذوي السحن التعسة, يتحدثون همسًا عن متاعبهم ومشكلاتهم, وكل منهم ينتظر دوره. ورأى في عيونهم لمعان المحمومين، ورائحتهم هي الرائحة التي تنبعث من قوم جياع.

واخترق جيرار القاعة، وطرق بأصابعه باب موظف التشغيل, وأجابه صوت غليظ ينم عن ضيق صدر:

- ماذا تريد؟

فدخل جيرار، ووجد نفسه أمام الوحش الآدمي وجهًا لوجه؛ فالرجل الذي تلتمس منه عملاً، له دائمًا صورة الوحش.. بيد أن هذا الرجل بالذات كان أفظع من المعتاد، فله وجه طويل كالح تزينه نظارة ذات إطار ذهبي, وأسنان من هذا المعدن نفسه. ووراء إحدى أذنيه قلم رصاص، وفي يده قلم حبر، وقد جلس يتصبب عرقًا وأمامه استمارة مطبوعة.. وبين الفينة والفينة، كان يقبض على مروحة كهربائية صغيرة الحجم ويرفعها إلى مستوى أذنه الأخرى التي ليس فوقها القلم الرصاص.. فيبدو وكأنه ينفض التراب عن مخه بالهواء المضغوط.

ونظر بغير اكتراث إلى جيرار، وقال له:

- لاشيء اليوم يا صاح.. مر علينا في وقت آخر.

وبعد يومين ذهب جيرار وهو يشعر بخجل شديد إلى المكتب الحكومي للهجرة والعمل، وهو يحتل بناءً ضخمًا له بوابة من البرونز. ووجد في الفناء لوحة ضخمة من الرخام، حفر فيها بحروف من البرونز أيضًا حقوق وواجبات المهاجرين. ومن بين هذه الحقوق:

"كل من دخل أراضي جواتيمالا ولديه الشجاعة والرغبة في الخدمة، وكان جيد الصحة, سليم البنية, حسن الخلق, عالي الهمة فله الحق في أن يحصل يوميًا على القوت".

وليس هناك تحديد لعدد وجبات الطعام في اليوم، ولا لعناصر هذا الطعام اليومي..

ووراء مكتب على الطراز الأمريكي في البهو الخارجي، جلس موظف في كسوة رسمية؛ عبارة عن بنطلون قصير من الكاكي, وقميص أبيض, وربطة عنق سوداء غير مربوطة. ورفع هذا الموظف يده بإشارة رفض قبل أن يسمع أية كلمة. ولكن جيرار لم يفقد الشجاعة، وصاح يرحب به باللغة الأسبانية، وكأنه من أصدقاء الطفولة.. فرفع الكاتب رأسه متعجبًا، وارتسم على وجهه الأصفر شيء ما يمكن أن تسميه ابتسامة.

ومكافأة لجيرار على بلاغته في إعطاء معلومات مبالغ فيها جدًا عن نفسه، تسلم جيرار بطاقة بها أوصافه.. جيرار ستارتمر، العمر ٣٦سنة، مولود في باريس، ليست له صحيفة أحوال جنائية، المهنة مراقب عمال.

ولم يتبين جيرار إلا بعد أن صار خارج البناء أن البطاقة لا نفع لها إلا في تزكيته للعمل في أرصفة الميناء. وجعل يقنع نفسه، ويحتال على كرامته

الجريحة وهو في طريقه إلى الميناء.

وكانت أكياس الأسمنت مكومة على مسافة عشرين ياردة تقريبًا من حافة الرصيف.. وكل كومة من الأكياس طولها نحو مائة ياردة، وعرضها ثلاثون ياردة، وارتفاعها خمس ياردات.. ورئيس العمال في يده هراوة وصفارة، وتحت إمرته نحو عشرين رجلاً يحملون الأكياس على أكتافهم إلى مكان في نهاية الرصيف حيث يكومونها أكوامًا أخرى طول كل منها مائة ياردة, وعرضها ثلاثون ياردة, وارتفاعها خمس ياردات. وكل شيء يدل على أنه بعد الانتهاء من نقل تلك الأكياس، لا يبقى هناك عمل يقومون يه سوى إعادتها إلى مكانها الأول.

واقترب جيرار من العمال.. وكان العرق يتصبب من أجسادهم بغزارة، فيختلط بتراب الأسمنت وبالدم الذي يخرج من الأجزاء المسلوخة من ظهورهم تحت تأثير الاحتكاك. وكانت خدودهم غائرة, ونظراتهم زائغة.. وبين الحين والحين كان أحدهم يقف ويسعل ثم يبصق كتلة رمادية اللون يختلط فيها البلغم بالأسمنت.. وإذا استغرق هذا وقتًا أطول مما يجب، نفخ مقدم العمال في صفارته نفختين قصيرتين على سبيل الإنذار.. أما الإنذار التالي فضربة هراوة.

واتجه جيرار إلى مقدم العمال، وبسط إليه البطاقة، وسأله:

– ما هو عملي؟

وكان مقدم العمال هنديًا بدينًا أشبه بسجان صيني.. مد يديه إلى جيرار بالصفارة والهراوة، وقال له بلهجة أخوية:

– عملك أيها الرفيق أن تحل محلي لأستريح.

وحملق فيه جيرار.. فوجده شخصًا ودودًا. ومع هذا قال:

– أفضل من هذا عندي أن أتناول وجبتي القادمة في السجن عقابًا لي على جريمة كسر عنقك.. احتفظ بعملك القذر.

ونظر إليه الرجل مأخوذًا.. وهز جيرار كتفيه، وأفل راجعًا إلى حانة القرصان الأسود ليتناول طعام الغداء، وقد نفض يديه من البحث عن عمل شريف.

وبعد ذلك بدأت مشروعات التهريب، وأساس هذه العمليات اثنان من أغنياء التجارة؛ أحدهما كيماوي يشتغل بتجارة العقاقير غير المشروعة، والآخر يمتلك السوق الوحيدة في المدينة. وغاظ جيرار أنهما يتلاعبان بأطماعه وآماله، وأيقن أنه لو كان يمتلك جزءًا من رأس المال –ولو ضئيلاً– لعزز ذلك موقفه منهما كثيرًا. ولو كان يمتلك مثلاً زورقًا لقدم الرجلان البضاعة اللازمة ورأس المال النقدي، بل إنهما وعداه إذا حصل على زورق أن يمداه بعشر آلاف دولار.

وكان يعرف أن لدى صاحب مشرب على الساحل زورقًا يمكن إصلاحه وإعداده للعمل بنفقات قدرها ألفان من الدولارات. وصاحب هذا الزورق مستعد أن يبيعه على أقساط، وهو زورق مليح إذا تم إصلاحه لا تقل قيمته عن خمسة عشر ألف دولار. ولكن من أين يأتي جيرار بالألفي دولار؟ هذه هي مشكلته الآن بإيجاز.. فلو أنه يملك فورًا ألفي دولار لأمده الشريكان بعشرة آلاف، يستطيع أن يحصل بواسطتها على

مزيد من النقود.

وظلت الحالة على هذا الوضع أحد عشر شهرا.. كان الفرنسي يذهب في خلالها مرتين أسبوعيًا لزيارة شريكيه حتى لا يفقد الصلة بهما، وفي بقية الوقت يعيش بلا هدف ولا عمل، وفي حالات الضجر كانت لديه ليندا.

وإلى جانب جيرار، كانت هناك طيور جارحة أخرى تصفق بأجنحتها شوقًا إلى الرمم والأسلاب في ذلك المرفأ.. كان هناك هانز سمير لوف؛ وهو يزعم نفسه روسيًا مرة، وبولنديًا مرة أخرى، ولتوانيًا مرة ثالثة، وجرمانيًا مرة رابعة، على حسب جنسية السائل, وعلى حسب آخر أنباء الموقف الدولي. وكان يشغل منصب مدير الشرطة في حكومة هندوراس إلى أن أرغمته الظروف السياسية على الرحيل فجأة. وكان أصدقاؤه يداعبونه دعابات قاسية في هذا الصدد, وهو لا يفتأ يؤكد أنه يعمل على تكوين جيش من القتلة الجياع الذين لن يتركوا حجرًا قائمًا على جحر في العاصمة، عندما يزحف على رأسهم لاحتلالها وإحداث انقلاب فيها.

وعندئذ يمعنون في استدراجه إلى أن يعترف أنه لا يمتلك درهمًا واحدًا يشتري به الأسلحة اللازمة لانقلابه المزعوم. وعندئذ يرتسم الغيظ وخيبة الأمل على وجهه بصورة تضحك الجميع.

وكان هناك أيضًا برناردو سالفيني.. وهو محدود الذكاء جدًا, ويزعم أن جواز سفره يحمل تأشيرة "فيزا" من الولايات المتحدة الأمريكية. ومتى ظهر قادم جديد في حانة القرصان الأسود، أقبل الشاب النامي اللحية المهلهل الثياب عليه, وجلس إلى مائدته يجاذبه الحديث ويسأله:

– أعتقد أنك وصلت لتوك يا سيدي.. فهل أنت قادم من الولايات المتحدة؟

وإذا كان الجواب كلا، عاد برناردو يسأله ولا ينتظر جوابًا عن سؤاله.. إنما هي فرصة للكلام.

– ألم تعش في الولايات المتحدة؟ أنا في الحقيقة في موقف عسير.. فلدي تأشيرة دخول إلى هناك، ولكن ليس معي نقود، وجواز سفري سينتهي مدته بعد ثلاثة أشهر، وأخشى ألا أتمكن من كسب المال الكافي في الوقت المناسب.. فالرحلة تتكلف نحو مائة دولار، فلعلك يا سيدي تتكرم بإقراضي إياها.

والجواب في الغالب هو الرفض.

وهناك كذلك جوني.. وهذا ليس اسمه الحقيقي؛ فهو روماني التجأ إلى لاس بييدراس بعد أن طعن أعز أصدقائه حتى الموت وهو سكران.. وهو قادم مثل هانز من هندوراس. وقد أصبح جيرار الفرنسي هو صديقه الحميم الجديد الذي عوضه عن خسارة صديقه المقتول بيده...

وهناك آخرون مثل لويس الإنجليزي المشهور بشذوذه والذي لا يهتم إلا بالزنوج، وجوان بمبا الذي كان من جنود النسف والتدمير في الحرب الأسبانية الأهلية؛ وقد هرب من المكسيك لينجو من مواطنيه الشيوعيين الذين اتهموه بعدم التقيد بأوامر الحزب. وهناك لويجي, وبدورو, وديلوفر, وجوميز.. وجملة الجميع عشرون رجلاً يتحرقون شوقًا إلى التحرر من الفاقة والمنفى.

الفصل الخامس

علقت على البوابة الخارجية لمعسكر شركة الزيت الخام لافتة كبيرة مكتوب عليها: " مطلوب سائقو سيارات نقل من الدرجة الأولى.. العمل خطر، الأجر مرتفع، قدّم طلبك لمكتب التشغيل"

وكانت قد عقدت في ذلك الصباح في الكوخ الخاص بمدير الأعمال لجنة مكونة منه هو وخبير قادم من تكساس بطائرة من طائرات الشركة، ومدير قسم النقل, ومدير العمليات.

قال أوبرين للمجتمعين:

– لحسن الحظ أن تحت يدنا كمية مخزونة من النيتروجلسرين...

وبعد أن قذف بعقب سيجارته من النافذة المفتوحة وبصق خارجها، عاد إلى مائدة الاجتماع واستطرد قائلاً:

– هذا من قبيل الحظ الحسن.. أما فيما يتعلق بالسائقين فلكم أن تقرروا بشأنهم ما تشاءون.. فكل ما أعلمه أني لا أستطيع أن أترك البئر تواصل الاحتراق إلى مالا نهاية. وإذا لم نسرع في عملية الإطفاء، فلن نستطيع أن نفعل شيئًا إلا بعد أن تغير الريح اتجاهها.

فقال الخبير القادم من تكساس:

– ومتى يتم هذا؟ ما هو بيان مصلحة الأرصاد؟

وهز أوبرين كتفيه، وأطلق سبابًا بذيئًا.. مصلحة الأرصاد؟ إن التغير الموسمي في هذه الرياح يحدث في نفس الفترة من كل عام. ولكن لا أحد في هذا الإقليم المتأخر اهتم برصد التواريخ واكتشاف التنبؤات, وما أكثر المراكب التي تغرق كل سنة بسبب هذا التقصير!.

وأشعل مدير قسم النقل سيجارة، ثم قال:

– إنك تطلب منا الآن أن نبت في مسألة صَدَر فيها قرار قبل أن يؤخذ رأينا بصورة مشروعة، فالإعلان الذي يطلب السائقين معلق منذ الصباح الباكر على الباب.

وكان غرض رئيس قسم النقل من هذا الكلام أن ينبه مندوب رئاسة الشركة إلى الطريقة التي يلغي بها أوبرين اختصاصات مرءوسيه.. ولكن أوبرين قال بحزم:

– ولأن الإعلان معلق بالفعل منذ الصباح، أعتقد أن كل هذه المناقشات مجرد مضيعة للوقت.. فلنلخص الموقف مرة أخرى: إن إحضار مجموعة من السائقين المتخصصين من الولايات المتحدة سيكون حماقة لاشك فيها، ولاسيما أن نوع السيارات التي سنقدمها إليهم يعتبر خطر للغاية في هذه المهمة بالذات.. هذه هي الحقيقة، أليس كذلك يا همفري؟

وأجفل رئيس قسم النقل بعض الشيء عندما سمعه يناديه باسمه الصغير، وقال:

– الحقيقة أن هذه السيارات ليست أكثر الأنواع أمانًا.. ولكن لو أنهم سمعوا كلامي...

وقاطعه أوبرين قائلا:

– أنا الذي ستسمع أنت الآن كلامه.. إننا إذا أحضرنا سائقين من الولايات المتحدة، فإما أن يرفضوا حمل النيتروجلسرين في شاحنات لا تتوفر فيها أجهزة الأمن الضرورية، وإما أن يقبلوا. وفي حالة الرفض سيتحتم علينا أن نحضر شاحنات من نوع خاص من تكساس، وسيتكلف إحضارها مالاً طائلاً ووقتًا طويلاً. وإذا قبلوا وحدث لهم مكروه فسندفع لاتحاد أولئك العمال تعويضات لا يعلم مداها إلا الله. وإذا أعدناهم إلى الولايات المتحدة، وعدنا إلى فكرتي وهي استخدام سائقين محليين.. فاتحاد أولئك العمال الأمريكيين لن ينظر إلى عودتهم هكذا نظرة طيبة، وسيطالبنا بتعويض محترم.

وكانت الحجة قوية.. فحتى أضخم, وأغنى, وأقوى المؤسسات الصناعية ترى من الحكمة أن تلزم جانب الحذر في كل ما يمس اتحاد العمال الأمريكيين.. واستأنف أوبرين كلامه، فقال:

– وأيًا كان التصرف فستكون هناك متاعب حتمًا.. فمن الأفضل إذن أن نواجه المتاعب من البداية. وحالة الطرق الراهنة (هذا إذا سميناها طرقًا) تجعل وصول نصف الشحنة من غير انفجار شيئًا من قبيل المعجزات. وتذكروا أن أولئك السائقين سينقلون النيتروجلسرين، لا أقفاصًا من الفاكهة, أو أكياسًا من الحبوب.

ونطق أوبرين بكلمة نيتروجلسرين ببطء شديد ووضوح تام.. كل حرف منها على حدة، وكان لهذا تأثيره على السامعين، فسادهم صمت

رهيب. وقال خبير الإطفاء القادم من تكساس:

– مادام الأمر كذلك...

فسأله أوبرين بحزم:

– كم من هذه المادة تقدر أن عملية الإطفاء ستحتاج إليه؟ وفي كم شاحنة تقدر نقلها؟

– أعتقد أن العملية ستحتاج إلى حوالي طن من النيتروجلسرين على خمس أو ست شحنات، فمن الأفضل أن نوزع المجازفة، ولديكم هنا طنان.. فإذا لم نوصل إلى مكان الحريق الكمية الكافية، لضياع جانب كبير منها في الطريق؛ فسيكون كل ما فعلناه مضيعة للوقت.

والتفت أوبرين إلى مدير قسم النقل، وسأله:

– كم يتكلف الحصول على شاحنات خاصة لهذا الغرض؟

وأخذ مدير قسم النقل يفتش في الأوراق الموجودة داخل حافظته، ولكن الخبير القادم من تكساس أجاب بالنيابة عنه:

ثمن الشاحنة الواحدة سبعة آلاف وخمسمائة دولار.

فقال أوبرين على الفور:

– تضاف إليها ألف دولار لإحضارها إلى هنا، ثم هناك رسوم التأمين، وما أبهظها من رسوم.. كلا.. هذا مستحيل.

ومرة أخرى ساد الصمت.. والتفت أوبرين إلى الحاضرين، وقال

بلهجة متأنية كالتي يخاطب بها طباخه حينما يشرح له تركيب صنف جديد من أصناف الطعام:

– فلنحاول أن نتدبر الأمر محليًا.. ومن الذين سيتقدمون لهذا العمل؟ سيتقدم أولاً حفنة من الأهالي لن يكون لنا بهم أي شأن بطبيعة الحال.

فقال مدير العمليات بسذاجة، وقد فتح فمه لأول مرة في هذا الاجتماع.

– ولم لا؟ لم لا يبدو لي أنهم.

– يبدو لك أنه ليس لدينا ما يكفينا من المتاعب بالفعل بسبب تلك الحفنة من الأهالي التي لقيت حتفها بالأمس في الانفجار. أليس كذلك؟ فإذا مات بضعة عشر مواطنًا آخرون من أبناء هذه الجمهورية العظيمة الحرة المستقلة نسفًا بالمادة التي يحملونها، أظنك تتوقع أن تصدر الحكومة المحلية قرارًا بشكرنا، وتنشر صورنا مكللة بالغار والزيتون في الصحف الوطنية.

وكان لهذا التهكم القاسي من لدن اوبرين وقعه الساحق..

وأسرع مدير العمليات يعترف بخطئه قائلاً:

– أعترف أنني لم أفكر في هذا..

– لا بأس إذن.. وإلى جانب الأهالي من الذي سيتقدم للحصول على هذا العمل؟ المعدمون والمتشردون طبعًا.. فهناك كثيرون من الأجانب

المعدمين ينتظرون أقل فرصة للارتزاق، وللحصول على مبلغ يكفيهم للرحيل عن هذه البلاد.. وهؤلاء هم ضالتنا. هؤلاء هم الذين سيقودون شاحناتك يا همفري في أسوأ الطرق وأوعرها.. بل إنهم مستعدون أن يزحفوا على أكفهم وركبهم حاملين الشحنة على ظهورهم من أجل ما يكفي لسفرهم إلى المكسيك. وهؤلاء قوم منقطعون لا يطالبنا بدمهم أحد.. لا نقابات، ولا أقارب، ولا ورثة، ولا اتحادات، ولا حكومة.

وعندئذ قال همفري متهللاً:

– مرحى.. ولهذا السبب لسنا مضطرين أن ندفع لهم أجرًا كبيرًا.

وما إن سمع اوبرين هذه الكلمة حتى تحولت ملامحه القاسية إلى صورة لم يعهدها أحد من الجالسين حول المائدة من قبل.

وانقض على الشاب همفري، فجذبه من ياقته وأقامه من مقعده وقد نفرت العروق من جبينه وعارضيه, وصارت عيناه كالجمر، ثم صرخ فيه:

– أيها الدنيء.. أيها المنحط الساقط المروءة.. نفسي تحدثني أن أقتلك على خازوق.

وأخيراً أطلقه من يده، ووقف يحدق بغضب في الباقين، ونفسه تحدثه أن يضرب رءوسهم بعضها ببعض، وأن يصرخ فيهم ليقول لهم أنه شخصيًا، مايك أوبرين، كبير مديري الأعمال في شركة الزيت الخام، كان يومًا ما واحدًا من أولئك المتشردين المفلسين. وكان يحمل ثيابه على كتفه، ويتقل من مكان إلى مكان بحثًا عن اللقمة وعن المستقبل.. فمن حقه إذن أن يكون خشنًا قاسيًا، ولكن أي حق في ذلك لهذا المخلوق همفري سليل

الثراة الذي تخرج في الكلية منذ ثلاث سنوات؟ إن ذكرى طفولته التعسة تملأ قلبه باحتقار لا نهاية له نحو همفري ومن على شاكلته.

وهدأت ثائرته رويدًا رويدًا.. وأخيرًا استطاع أن يتكلم بصوته العادي قائلاً بهدوء:

– أعتقد أن أقل ما يجب هو أن ندفع لهؤلاء المساكين الأجر الذي يتكافأ مع العمل؛ وهو شيء غير قليل.. ولكننا سنحاول أن ننقل الحمولة على دفعتين, لأنه ليس لدينا ست شاحنات نستطيع الاستغناء عنها, ولن نجد العدد الكافي لها من السائقين في المستوى المطلوب. وأقصى ما نأمله أن نحصل على أربعة سائقين, وعلى اثنين من الاحتياطيين أو أكثر لحالات الحوادث.. وسأتولى بنفسي مقابلة المتقدمين للعمل, واختبارهم, واختيارهم.

وبهذا انتهى الاجتماع.. فنهض الرجال واقفين، وتقدم الخبير القادم من تكساس، وربت على كتف أوبرين ملاطفًا.

ولم يخب ظن أوبرين، فقد أقبل الأجانب المتسكعون زرافات.. أقبلوا بكامل عددهم وهو عشرون، ولم ينتظموا في صفوف، بل راحوا يشقون بالمناكب طريقهم وسط جموع المتقدمين من الأهالي الذين كانوا واقفين منذ السادسة صباحًا حتى هذه الساعة؛ وهي العاشرة, ولم تفِد توسلات رجل البوليس القائم بالخدمة هناك.. فلما فتح الباب، كان الأوروبيون في المقدمة من ذلك الزحام, وكان بينهم جيرار, وهانز, ولويجي, وبمبا, وجوني, وبدرو, وجوميز, وبرناردو سالفيني وغيرهم. ودخلوا واحدًا واحدًا، حيث قدمت

لهم الطلبات المطبوعة كي يملئوها.. وبعد فترة من الانتظار قابلهم سكرتير أوبرين.

وكان هناك كاتب يقرأ له البيانات الموجودة في طلب كل منهم؛ مثل السن، والاسم، والجنسية، وتفاصيل أخرى كثيرة، ثم طلب منهم السكرتير أن يملأ كل منهم كراسة أسئلة مكونة من أربع صفحات، جواب كل سؤال منها كلمة واحدة.. وأخيرًا صرفهم على أن يعودوا بعد الظهر.

وكان عدد منهم قد قضى سنوات طويلة في بلاد الزيت هذه، فلما سمعوا أنباء الحريق في الوحدة رقم ١٦ استنتجوا أشياء كثيرة، وتوقعوا أن المطلوب منهم هو نقل النيتروجلسرين.. فكان هذا الخطر الكبير هو الساحبة القائمة التي تظلل تصور الآمال التي شيدوها على أثر قراءة الإعلان المغري.

واجتمع شركاء جيرار في مشروع سفينة التهريب في حانة القرصان الأسود، ليبحثوا جديًا في أمر الزورق الذي سيحصل عليه جيرار. وكانوا كلهم يعرفون هذا الزورق، فقد صحبهم إلى هناك وأطلعهم عليه أكثر من مرة، ولكنهم اليوم يرون المشروع وشيك التحقيق؛ ولهذا أخذوا يتفقون على تفاصيل حقوق كل منهم, وواجباته, ونصيبه في الأرباح.

وبطبيعة الحال اختلفوا، واشتد خلافهم، وعلا صوتهم إلى أن وقف جاك على قدميه وصرخ فيهم:

– أيها المجانين.. أتظنون أنكم جميعًا ذاهبون؟ سيكون جيرار هو القبطان، وسيكون هانز هو مساعده, وجوني رئيسًا للبحارة. وبوسكو,

ولويجي, وبمبا, وجوميز, وديلوفر, وبرناردو بحارة.

وكان يشير بسبابته نحو كل واحد منهم، وهو ينطق باسمه في بطء شديد، إلى أن أصبحوا جميعًا شاخصي الأنظار إليه في دهشة واستنكار. وعندئذ أشار بذراعه في حركة شملتهم جميعًا، وقال:

– كلكم ميتون موتًا ستموتون جميعًا.

وصاح واحد منهم:

– إن العجوز يخرف.

– قد أكون خرفًا.. ولكني أعرف ماذا أقول. لقد مارست هذا العمل بنفسي مرة في الزمان السالف.. لم تدركوا هذا الزمن، لقد انفجر نصف الشاحنات وصار دخانًا في الهواء. أتعرفون ما معنى هذا؟ خمسون في المائة.. واحد من كل اثنين منكم سيكون دخانًا في الهواء يا من تتشاجرون الآن على خطط المستقبل.

وأوشك أن يبكي.. وأخذ يفرك يديه، وتدلت شفته السفلى. وساد الوجوم على جميع الموجودين، وكأنهم أطفال وبخهم أبوهم الساخط عليهم.. وأخيرًا انفجر جاك قائلاً:

– طبعًا من حقكم أن تحملقوا في وجهي.. إنكم تعتقدون أنني أحمق عجوز.. عجوز نعم.. أتعرفون ما هي حقيقة سني؟ إنني في الثامنة والثلاثين. والعمل الذي تتهافتون عليه هو الذي جعلني أبدو في الثمانين.. هو بعينه هذا العمل الشديد الخطورة المرتفع الأجر لحساب شركة الزيت

الخام.. هذا ما جناه علي العمل الذي تقتتلون على الظفر به.

وأخذت الدموع تنحدر مدرارًا من عينيه.. ولما رفع يده إلى وجهه سقط كمه وانكشفت ذراعه، فإذا شيء هزيل للغاية أشبه بذراع طفل.. فقد أكلت الحمى, والفساد, والمخدرات عافيته.

– واحد من كل اثنين يلقى مصرعه في هذا العمل.. والقلائل الذين يعيشون يظلون على حالهم من الفاقة كذي قبل، يستوي في ذلك من ظفروا بالعمل ومن لم يظفروا به، لأن الذين ظفروا بالعمل ونجوا من الموت عادوا وقد لبس أجسادهم شيطان الخوف، وسمم حياتهم كأنه الجدري, أو السرطان.. فظلوا متأثرين بمضاعفاته الخبيثة بقية عمرهم. وصدقوني حين أقول لكم أنه ما من سرطان أسوأ من الخوف.. الخوف العميق الحقيقي.

وأشاح الجميع بوجوههم عنه، وقد ركب نفوسهم الضيق, وقال جيرار ليهون عليه الأمر:

– لم يحصل أحد منا على العمل بعد.. فما أشبهنا بالأطفال الذين تشاجروا بسبب مأدبة لم يدعو إليها.

وغمغم هانز قائلاً:

– إن هذا العجوز يكره العملية، ولكن ليس هذا مبررًا كافيًا كي ينفر الناس منها.

الفصل السادس

والآن.. ما هو الخوف، بعد كل شيء؟

إنه ليس دائمًا, ولا حتما أصفر اللون, أو أخضره, أو أبيضه.. بل من الجائز أن يتخذ من الأشكال والألوان ما لا حصر له. ومن الجائز أيضًا أن يكون سائلاً لا لون له ولا رائحة، ولا يوشك إلا يكون له طعم.

في ذلك اليوم، بعد الظهر، عادوا إلى كوخ مدير الأعمال, وأُدخلوا على أوبرين شخصيًا. وكان أوبرين يرقبهم وهم يدخلون؛ فخامره من ذلك توجس قليل.. بيد أنه لم يلبث أن اطمأن عندما سنحت له الفرصة كي يرجع فيهم بصره. لقد كانوا جميعًا أصغر منه سنًا، وليس أحد فيهم من جيله، ولا يعرف منهم أحدًا.. وظل واقفا خلف مكتبه اللامع، يدخن سيجارًا أسود من السجائر المصنوعة محليًا.. وإلى يمينه مباشرة أمبيق من أنابيق الكيماويين مملوء إلى ثلثه بسائل زيتي.. وقال لهم:

– أعتقد أيها الفتيان أنكم جميعًا تفهمون الانجليزية.

وتبادلوا النظر فيما بينهم.. ولم يكن بينهم أحد من أهالي جواتيمالا؛ فهمس جيرار في أذن جوني قائلاً:

– الأمر مقصور علينا نحن الأوروبيين هذه المرة.. وهذا في حد ذاته علامة خير.

ونفخ أوبرين قليلاً من الدخان، ثم قال:

– لقد قصدت أن أتحدث إليكم بنفسي حتى لا يكون هناك مجال للبس.. إني أريد أربعة من السائقين لقيادة شاحنتين كي يتولوا فيما بينهم نقل طن من مادة النيتروجلسرين إلى مكان وحدة الحفر رقم ١٦ والشاحنتان من النوع العادي، وغير مزودتين بمانعات التصادم أو غير ذلك من أدوات الأمان, وإنما هما شاحنتان في حالة جيدة.. ولا مزيد على ذلك.

وأصغت مجموعة الرجال في غير اهتمام, لأنهم يعرفون في الأمريكيين شغفهم بإلقاء الخطب. واستطرد أوبرين، وهو يرفع الإِنبيق الزجاجي في الهواء إلى مستوى كتفه:

– هذا هو النيتروجلسرين.. إن منظره لا يدل على شيء خطير، ولكنه مادة شديدة الخطورة, وكلما ازدادت سخونته زادت خطورته. وعند حوالي درجة ١٨٠ فهرنهيت يصبح عرضة للانفجار, بل وأكثر من هذا؛ أيّة صدمة قوية حريّة أن تفجره.. مثلاً انظروا وارقبوا ما سيحدث.

فاشرأب عشرون عنقًا إلى الأمام بحركة واحدة، وبسط أوبرين ذراعه بالإِنبيق الصغير، وهزه هزًا هينًا بطيئًا.. فتجمعت بضع قطرات على الحافة الخارجية وسقطت. وبمجرد ملامستها لخشب الأرض صدرت أصوات حادة جافة متتابعة، وارتفع من الأرض عمود من الدخان أشبه بالغبار المتطاير.. فصاح أحد الرجال بإعجاب:

– يا إلهي!

فقال أوبرين بهدوئه الخطير:

– ليس ما رأيتم الآن شيئًا مذكورًا.. ولكن عندما يكون وراء ظهرك نصف طن من هذه المادة تتحرك بها في طريق غير ممهد.. إنك على كل حال لن تتعذب لأنك لن تشعر بشيء.

وضحك الرجال...

وكان رنين ضحكهم يمكن أن يعتبر آية من آيات التملق للمتحدث الخطير الشأن، ولكنه في الواقع كان آية على مرح حقيقي صادر عن رجال شداد القلوب، غلظت أكبادهم بالتجربة القاسية، وقد أسعدهم أن يكتشفوا في محدثهم الثري رجلاً من معدنهم... وأعاد أوبرين الإنبيق إلى مكتبه بلطف، وقال:

– هذه هي المهمة بوضوح.. والاحتياط الوحيد الذي في استطاعتكم أن تتخذوه هو أن تملئوا الخزان إلى أقسى طاقته، حتى لا يسمع للسائل بالارتجاج في داخله. وإذا قد تم بنعومة شديدة كأنكم تحملون طفلاً حديث الولادة، وأخذتم حذركم من كل شبر في الطريق، وثابرتم على مراجعة درجة الحرارة.. وعلى الخصوص إذا أسعدكم الحظ، ربما كتبت لكم النجاة. وهذا ما أرجوه لكم، وأنا أعلم أنكم من طراز الفتيان الذين لا يتراجعون أمام المخاطر, ولكن إذا خطر لأحدكم بعد هذا البيان الذي أدليت به أن يتراجع، فليس أمامه سوى أن ينهض الآن وينصرف من فوره.

وكان أوبرين قد انتهى من تدخين سيجاره، فانشغل بإشعال سيجار آخر، وقد حرص على ألا ينظر إلى الحاضرين. وبقي فريق منهم لمجرد سماع

ما عساه أن يقول بعد هذا.. ولكن في المؤخرة تكونت مجموعة من الانهزاميين، ونهض ستة رجال وانصرفوا، ومن بين هؤلاء جوميز.

وجوميز هو الذي أبدى قبل ذلك بدقائق، في الاجتماع المعقود بقاعة حانة القرصان الأسود، منتهى الحماسة للمغامرة كي يظفر بمكان فوق زورق جيرار العتيد. ولذا صاح جيرار في أعقابه وهو خارج:

– إنك لن تبحر تحت قيادتي أيها الرعديد.

فهز جوميز كتفيه قائلاً:

– من الخير ألا أبحر تحت قيادتك.. فهذا أفضل من ألا أبحر على الإطلاق.

واستأنف أوبرين حديثه قائلاً:

– سيُجرى لكم بطبيعة الحال عدد من الاختبارات، فكل ما نحن بحاجة إليه أربعة من السائقين.. ونحن لا نستطيع أن نقبل سوى السائقين من أمهر طبقة، لأننا سنجازف بخمسة آلاف دولار على كل شاحنة من الشاحنتين. وعلى كل حال فمن مصلحتكم الخاصة أن نختبركم اختبارًا دقيقًا. وهناك شيء آخر أذكره لكم هو أن الأجر الذي سيناله كل منكم هو ألف دولار نظير رحلة طولها ثلاث مائة ميل. وبمجرد أن يفرغ الواحد منكم شحنته يستطيع أن يعود إلى هنا في بضع ساعات. وهذا الأجر في حد ذاته كاف لإشعاركم أن هذه العملية ليست نزهة من نزهات مدارس الأحد.

والتفت فجأة نحو الباب، ثم اتجه إليه مارًا أمام حفنة المتقدمين لبعثة الموت، وأشار إليهم بيديه كي يتبعوه. وفي الخارج كانت هناك شاحنة في انتظارهم من الشاحنات المعدة للنقل العادي ومن نفس طراز الشاحنتين اللتين ستستخدمان لحمل المتفجرات.. وقال لهم:

– اركبوا كلكم في الخلف.

ثم قاد السيارة بهم إلى خارج السور، ثم إلى خارج المدينة، إلى أن أوغل بهم في أرض فضاء وعرة السطح ثم توقف، وأخرج من جيبه قائمة بها أسماء، ووضع قلم رصاص وراء أذنه ونادى:

– بيلوت.

فتقدم رجل وقال:

– هذا أنا.

– تعال هنا وتناول عجلة القيادة، وقُدْ إلى ذلك الكوخ القائم هناك، در بالسيارة بين هاتين الصخرتين وعد بها إلى هنا.

وصعد الرجل المسمى بيلوت إلى مقعد القائد، وجلس أوبرين بجواره. وتحسس مقياس السرعة ليتأكد من وجوده في حد الأمان، ثم ضغط على الزر، فأخرج أوبرين سيجاره من فمه وقال:

– تذكر أنك تقود حملاً ثقيلاً خلفك، وأنه عرضة للانفجار بك عند أقل اهتزاز.. هيا.

وأدار بيلوت المحرك بلطف شديد، وبدأت الشاحنة تتحرك ببطء

وكأنها تنزلق فوق الزبد. وحبس الرجال الجالسون في الخلف أنفاسهم انتظارًا لأقل هزة تخرج هذا السائق من المباراة.

وفجأة استولى على جوني القلق، أو لعله تصرف بباعث من الإلهام، فطرق بيده قمرة السائق الخشبي.. وهي الإشارة المتعارف عليها في جميع بلاد أمريكا اللاتينية، عندما يريد الفلاحون الراكبون في شاحنات مكشوفة أن يطلبوا من السائق الوقوف لينزلوا. وفعلت هذه الحركة فعلها، فضغطت رجل السائق على الفرامل، ووقفت الشاحنة فجأة، واهتز الركاب في الخلف اهتزازًا شديدًا القي بهم فوق قمة السائق.. فقال أوبرين بهدوء:

– حسناً يا بيلوت.. لو كان وراء ظهرك الشحنة الحقيقية لكنت الآن في عداد الأموات.. يمكنك أن تنزل.

ونزل الرجل وصفق الباب بشدة، وشرع يمشي في اتجاه المدينة.. ولكنه توقف بعد قليل، والتفت وراءه وأمطر رفاقه بالسباب.

واستغرق اختبارهم جميعًا نحو ساعتين.. وكل من رسب كان يرحل. وما من أحد فيهم جميعاً أدى الاختبار بغير أن يقع في غلط، أي من غير هزة.. ولكن أفضل الجميع بقوا في مؤخرة الشاحنة انتظارًا لسماع النتيجة النهائية من فم مدير الأعمال. ولكن أوبرين لم يقل كلمة واحدة إلى أن تبقى معه سبعة فقط يخامرهم الأمل.. وهم: جيرار، ولويجي، ولويس، وجوني، وهانز، وبمبا، وبرناردو. وكل واحد ممن أدوا الاختبار تعرض لمناوشات الآخرين، فهذا يجد منديلاً يهتز أمام عينيه، وهذا يسمع صراخًا مفاجئًا. وأوبرين لا يعترض على شيء.. فكل هذه العقبات تزيد من قيمة

الاختبار. والهدف الأساسي للاختبار هو التأكد من سرعة خاطر السائق.

وكان هناك اتفاق سري بين جوني وجيرار يدفعان بموجبه أجريهما معًا لشراء الزورق؛ ولهذا حين كان أحدهم يقود الشاحنة، كان الآخر يمنع الباقين من مناوشته. والشخص الوحيد الذي ثبت لهما معًا هو هانز لأنه لم يضطرب؛ والحقيقة أنه كان شديد الثقة بنفسه، ولم يعر المناوشات اهتمامًا.

ولم يكن أوبرين أحمق.. وهو كان يعلم جيداً أن إعلان قراره النهائي سيثير مرارة، ولذا قرر ألا يقول شيء قبل أن يعود إلى مكتبه.

وكانت العودة إلى معسكر شركة الزيت الخام يسودها الوجوم، وأعصاب جميع الرجال كانت متوترة.

الفصل السابع

كان العمال يشتغلون بهمة في الجزء الخلفي من المعسكر، بالقرب من عريشات الإصلاح, والتأمين, والترميم، لإعداد الشاحنتين اللتين تولى أوبرين بنفسه اختيارهما في ذلك الصباح في ساعة مبكرة.

والشاحنتان من طراز استاندرد المسطح، لأن الشاحنات ذوات الخزانات تبلغ حمولة كل منها ثلاثة أطنان، ولهذا فهي لا تصلح لأداء المهمة المطلوبة.. ذلك أنه ما من واحدة منها يمكن أن تمتلئ امتلاء كافيا لمنع النيتروجلسريني من الارتجاج بداخلها.

وقد اتبع في إعداد الشاحنتين أسلوب أولي، ربما كان أفضل وسيلة مستطاعة في تلك الظروف.. فوضعت على كل شاحنة خابيتان من الفولاذ ثبتتا بأسلاك حديدية قوية إلى أوتاد من الخشب في جسم الشاحنة. ووضعت حول كل خابية أوتاد أخرى للحيلولة دون أدنى اهتزاز, وجعل لكل خابية مهد خشبي مبطن بالقش ونشارة الخشب. وبعد أن تملأ الخابية بالنيتروجلسرين، ترفع بلطف وتربط بتلك الأسلاك التي أعدت وجربت مقدمًا.

والميكانيكيون منصرفون الآن إلى إعادة فحص قوة مقاومة الضغط والاهتزاز في الأجهزة التي ركبت بسرعة في الشاحنتين. وكانت هذه النقطة هي موضع الضعف في العملية كلها.. فلا بد من أجهزة أخرى من نوع

خاص أرقى من هذا بكثير ولا تملكه الشركة حاليًا كي يضمن عدم انتقال أية هزة أو ارتجاج من نطاق العجلات إلى جسم الشاحنة.. والوقت لا يتسع لجلب هذه الأجهزة.

وأقبل أوبرين ليرى بنفسه مدى تقدم العمل في الشاحنتين قبل أن يتوجه إلى مكتبه، حيث يعلن أسماء السائقين الذين وقع عليهم اختياره.. وقال لسكرتيره:

– دعهم ينتظرون خمس دقائق، وضع أمامهم على المائدة زجاجة كبيرة من الويسكي.

ثم قال موجهًا الكلام لكبير الميكانيكيين:

– وماذا عن الحمولة؟

فخرج كبير الميكانيكيين من تحت الشاحنتين إلى ضوء النهار, وكان قميصه يقطر عرقًا، فمسح بيده العرق عن جبينه حتى لا يدخل إلى مقلتيه، فلطخت يده جبينه وعارضيه بالشحم. وكان التراب الجاف عالقًا بشعره وفمه لِما تساقط من الغبار من أسفل السيارة على سحنته، وهو يعالج تثبيت الأجهزة واختبارها. وبصق الرجل ثم قال:

– هذا ما يقلق بالي أيها الرئيس.. فالحمولة المثلى لهذا النوع من الشاحنات مقدارها طنان. وإذا زادت الحمولة عن هذا صعب حركتها، ولكنها بأقل من هذا تكون خفيفة جدًا ويكفي أي مطب في الطريق كي تقفز قفزًا.

– ضع طبقة إضافية من الحصى والرمل على مسطح الشاحنة.

– هذا سيستغرق وقتًا، ولاسيما أننا انتهينا من تثبيت البطانة الإسفنجية لتقليل الاهتزاز.

– لا بأس.. اصنع ما قلت لك.. واستخدم عددًا أكبر من العمال بأجر إضافي مضاعف, وفترة راحة مضاعفة فيما بعد... فالشاحنتان كلتاهما يجب أن تكونا في طريقهما في الساعة السابعة والنصف هذا المساء. وأولئك الفتيان من حقهم أن يتأكدوا من أن جميع الاحتياطات الممكنة قد اتخذت من أجلهم.. ولديك الوقت الكافي من الآن إلى الساعة السابعة والنصف.

وفي هذه الأثناء، كان الوقت في كوخ مدير الأعمال يمر بطيئًا جدًا.. كان هانز, وجيرار, ولويجي جالسين.. أما الباقون فكانوا يذرعون الأرض جيئة وذهابًا, وفي الوسط على منضدة زجاجة من الويسكي يقتسمونها بين سبعتهم. وقد أصدر أوبرين أمرًا إلى معاونيه في حالة إتيانهم على زجاجة الويسكي، ألا يقدموا إلى الرجال السبعة سوى عصير الفاكهة.

كان أوبرين يعلم أنه سيختار أربعة رجال، وأنه سيخيب بذلك آمال ثلاثة آخرين تخييبا مرًا؛ ولذا كان يفضل أن يكونوا جميعا في حالة صحو حين يكلمهم.

وغمغم هانز:

– ماذا يظن هذا الإيرلندي البدين اللعين أنه فاعل بنا؟

وأردف برنادو قائلاً:

– لقد كنت رديئًا جدًا.. والآن أغلق فمك.

وكان لويس المعروف بشذوذه هو الذي صاح ببرناردو هذه الصيحة.. فهو لا يحبه، لأن ملامح هذا الشاب الجميلة كانت تثير غيرته:

– أتظن يابرناردو أن أمامك فرصة للحصول على ذلك المال والرحيل عن هذا المكان؟ لو كنت في مكانك لما فكرت في هذا.. هذه ليست عملية يصلح لها الغلمان الحسان يا ولدي.. هذه عملية رجال وتحتاج إلى عزيمة، أتسمعني؟ عزيمة وصلابة، وقوة طبع.. عملية لأمثالي لا لأمثالك, فإذا كان مقدرًا لأحد منا أن يبقى إلى أن يتعفن في هذا المكان الموبوء فهو أنت.

- وعندئذ صاح جيرار بإعياء:

– إخرس بحق السماء.. كلنا نعلم أنك فتى ولا كل الفتيان, ونؤمن أنك هائل, ولكن حسبك.

ووقف أوبرين يرقب الكهربائي الذي كان يثبت مصباحًا أحمر اللون فوق سقف قمرة إحدى الشاحنتين، فالشركة أصدرت تعليمات مشددة بخصوص نقل المواد الخطرة. وإلى جانب الرجل الذي كان يثبت الأسلاك في مواضعها، كان هناك رجل آخر يطلي بالون الأحمر سقف القمرة. وصاح الكهربائي يخطره:

– انتبه إلى ما نصنع، فلا حاجة بك إلى أن تطليني أنا أيضًا باللون

الأحمر, ارفع يدك عني.

وصاح أوبرين بالكهربائي:

– أسرع يا مارتن.. الوقت ضيق.

وعندما دخل مكتبه تحولت جميع العيون لتتطلع إليه، وذكره ذلك فجأة بشبابه وما عاناه فيه من قلق.. فأسرع إلى احتلال مكانه خلف المكتب، وأخرج من جيبه حزمة من الأوراق أخذ يقلبها أمام ناظريه بحثًا عن الورقة التي يريدها. وهمس جيرار بصوت خافت يقول لجوني:

– ألا يذكرك هذا بشيء؟

– بماذا؟

– ربما بأول مرة حكم عليك فيها بالإعدام.

فهز الروماني كتفيه ولم يتكلم، وسعل أوبرين وقال:

– من منكم جوان بمبا؟

فأجفل الأسباني وحملق نحو المكتب، وتعلثم قبل أن يواتيه الكلام:

– إنه.. أنه أنا.. ماذا؟

وجاءت الكلمة الأخيرة كالانفجار.. وكأنه غاضب أو كأنه خائف. وساد صمت عميق والجميع ينظرون ليكتشفوا هل مدير الأعمال يقرأ أسماء من سيقبلهم أو من سيرفضهم.

وقال أوبرين بهدوء:

– أنت مقبول.

فأطلق جوان بمبا زفرة عميقة، ثم غاص في مقعده.

– لويجي ستورناتوري؟

فمال لويجي بدوره إلى الأمام ولكن بصورة أكثر هدوءًا مما أبداه بمبا، وهذا طبيعي وقد بات معروفًا الآن ماذا تعني تلاوة الأسماء.

– جوني ميخاليسكو..

وبذلك تبقى أربعة هم: جيرار، وهانز، ولويس، وبرناردو.. وثلاثة منهم لابد أن يخسروا الوظيفة

وتبادل الرجال الأربعة نظرات الكراهية السافرة في خلال اللحظة التي انقضت قبل أن يتفوه أوبرين باسم.

– جيرار ستارمر...

هذه هي النتيجة إذن، وهم الآن يعرفون كل شيء.. وتصلبت ملامح هانز سمرلوف وخلت من كل تعبير كأنها قدت من خشب, أما برناردو فصاح كالمجنون:

– ولكن ماذا عني أنا؟ ماذا عني؟ لقد نسيتني.. لقد أخرجتني منها مع أنني سائق مجيد، أفضل من أي واحد من هؤلاء.. إنك لم تختبرني اختبارًا دقيقًا، إن معي تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة.

فزمجر أوبرين قائلاً:

– أغلق فمك.. قد تكون أمامك فرصة أخرى في حالة.. في حالة وقوع حادث. ولكن عندئذ يكون المرشح الأول هو هانز سمرلوف، لأنه لا يحتاج إلى اختبار آخر.. سيبقى احتياطيًا.. أما الاثنان الباقيان ففي استطاعتهما أن ينصرفا. وأريد من الرجال الذين ذكرت أسماءهم أن يأتوا معي ليلقوا نظرة على الشاحنتين.. فأنتم ستبدءون الرحلة عند هبوط الليل، وأنت يا سمرلوف في استطاعتك أيضًا أن تأتي.

ووقف الرجال المحظوظون الذين وقع عليهم الاختيار ينتظرون انصراف الاثنين المرفوضين، قبل أن يضرب كل منهم الآخر على ظهره مهنئًا، وانصرف لويس وهو يهز كتفيه.. وبقى برناردو ليوجه التماسًا أخيرًا إلى مدير الأعمال.

– أنا لا أصدق أنك لم تأخذني.

– آسف يا فتى.

وكان الضيق ظاهرًا عليه، لأنه كان يفضل أن يسمع من هذا الفتى ثورة احتجاج أو سيلاً من الشتائم، أو حتى اللكمات.. فذلك كله أخف وقعًا عليه من هذا التوسل الشاكي الحزين. واستطرد قائلاً:

– ليس بيدي ما أستطيعه لك، وعلى كل حال لست بمؤسسة خيرية.. وإنما أنا رئيس هذه الشركة في هذا الإقليم المنحط. وإذا نسفت فسوف تأخذ معك زميلك في القيادة, ومواد قيمتها ستة آلاف دولار، هذا فضلاً عن شخصك, ومن الطريقة التي كنت تتلاعب بها بعجلة القيادة.

– أية عجلة قيادة؟

– عجلة قيادة الشاحنة يا فتى.. بهذه الطريقة تأكد لي أنك سوف تتلاشى في الهواء قبل أن تغادر حدود المدينة. والآن كن فتى طيبًا واهدأ، وعد إلى رفاق لهوك ودع هذا العمل للكبار.

ولكن الفتى ظل واقفًا كالمشدوه، حتى أن أوبرين اضطر أن يضع يده على كتفه ويدفعه إلى خارج الحجرة.

يا للمسكين برناردو لقد آمن بحظه في هذه العملية كما كان يؤمن في وقت مضي ببابا نويل؛ ولذا لم يحاول أن يمسح الدموع التي انحدرت في صمت على خديه، وهو يصرخ متوسلا.. وشعر الجميع بالراحة عندما توارى عن عيونهم خارج الحجرة.

وذهبوا إلى عريشة الإصلاح، حيث فتشوا الشاحنتين، وأوبرين يحف بهم في اهتمام بالغ كأنهم أطفاله، وكأنهم حصلوا جميعًا على جوائز التفوق في المدرسة، وسألهم:

– كيف ستقسمون أنفسكم؟ رتبوا الأمر فيما بينكم على حسب ما يتراءى لكم.. فهذا شأنكم طبعًا وليس شأني..

وتبادل جوني وجيرار النظرات، ثم قال جيرار:

– سنمضي معًا.

– وهو كذلك.

وظهر على لويجي بعض التجهم، لأنه بالطبع كان حريًا أن يثق

بميخاليسكو وصحبته أكثر من ثقته بجوان بمبا.

وكان إعداد الشاحنتين قد تم تقريبًا، والطلاء الأحمر قد بدأ يجف ويلمع, والأنوار الحمراء قد ركبت من الأمام, والخلف, وفوق السقوف, والعمال يتممون إضافة الحصى والرمال كي يصير ثقل الحمولة طنين على حسب تعليمات أوبرين.. فبدت الشاحنتان في منظر يبعث على الثقة. ورقد كل واحد من السائقين الأربعة على ظهره تحت الشاحنتين ليفحص أجهزة تخفيف الصدمات. وهي المسألة التي كانت بطبيعة الحال تشغلهم أكثر من غيرها، ولكنهم بطبيعة الحال لم يغفلوا عن المسائل الأخرى أيضًا. ولهذا ألقوا ببضع تعليمات إلى رئيس الميكانيكيين، وقال أوبرين للسائقين الأربعة:

– إنكم بالطبع ستجربون الشاحنتين قبل بداية الرحلة, ولكن ينبغي أولاً أن تجروا قرعة لتقرروا أي الشاحنتين يقودها اثنان منكما في المقدمة، وأيكما يقودان الشاحنة الأخرى في المؤخرة.

وأظن هذه أقرب طريقة للعدل.

ولكن جوني قال بلكنة رومانية:

– أظن الأكثر عدلا من هذا أن نبل ريقنا بشيء.

فضحك الأيرلندي مسرورًا من حضور بديهته، وضربه على كتفه ضربة قوية، وقال:

– معك حق يا أخ.. اتبعوني.

وكان مقصف الشركة يبعد ثلاثة أكواخ، فدخلوا جميعًا ومعهم أوبرين الذي صاح يأمر السقاة:

– كأس مزدوجة من الويسكي الاسكتلندي على حساب الإدارة. وكان هانز سمرلوف حاضرًا أثناء فحص السيارات، ولكنهم عندما اتجهوا صوب المقصف كانوا وحدهم، فلم يتبعهم إلى هناك.

الفصل الثامن

لعله من المستحيل أن نصف ما كان سمرلوف يصنعه في الوقت الذي كان فيه أوبرين يقدم المشروبات إلى قطيعه المختار في بار مقصف الشركة، من غير أن نجعله يبدو في نظر الناس وغدًا شرسًا.. ولكن هذا خلاف الحقيقة، أو هو ليس الحقيقة بتمامها. فهو بكل بساطة إنسان لا يترك شيئًا للصدفة. وقد وطن النفس على الفرار بأي ثمن من هذا البلد المميت الذي بدد فيه جانبًا كبيرًا من عمره، ولم يعد لديه قدرة على الصبر أكثر من هذا.

إن فتى مثل برناردو قد يكتفي بالبكاء عندما يرفض طلب التحاقه بالعمل، ولكن ليس هذا شأن هانز سمرلوف الذي تمرس بالتجارب والصعاب في ماضي حياته فصار عوده صلبًا. وليس من المعقول أن يبقى إنسان في الفخ، وقد سنحت له فرصة للخروج منه، مهما كانت الوسيلة إلى ذلك متصفة بالقبح أو الخساسة.

وسمرلوف بطباعه السلافية رجل لا تعشش في دماغه الأوهام عن قيمة الحياة البشرية.. ثم لديه مبررات يعلل بها لنفسه ويسكن ثائرة ما تبقى من ضميره.. مبررات مريرة عن وفاة الآخرين، وما في ذلك من عبرة. فكم عرف من رجال ماتوا وهم غير أهل للموت.. أجل لقد مات كل من عرفهم وأحبهم من الرجال والنساء ولم تبق منهم باقية.

وعلى هذا الأساس قر قراره.. فها هو ذا أوبرين قد أتاح له نصف فرصة حين اختاره احتياطيًا، فعليه إذن أن يجعل من هذا النصف فرصة، فرصة كاملة.. وبشيء يسير من البراعة والعناية

يستطيع غدًا أو بعد غد أن يعود إلى هندوراس غنيا قويًا موفور الاحترام.

وبينما هو يضع اللمسات الأخيرة في خطته، شعر بالإعجاب بما في تلك الخطة من دقة ونعومة، لأنها ينبغي أن تنفذ بحذافيرها قبل أن تجري القرعة على ترتيب الشاحنتين ومن يتوليان قيادة كل واحدة منهما.

ونظر بسرعة فيما حوله، وكانت نظرته كفيلة أن تفضح نواياه الخبيثة، لو أن أحد كان معينًا بمراقبة حركاته وسكناته. ولكن رئيس الميكانيكيين كان مشغولاً بالحديث مع رجل آخر على مسافة نحو عشرين ياردة، ويبدو أن حديثهما من شأنه أن يستمر برهة من الوقت. وكانت وقفة هاننز إلى جانب العجلة الأمامية اليسرى للشاحنة الثانية، بحيث يستطيع أن يرى الآخرين ولا يرونه.

ومشى صوب المنصة التي فوقها الأدوات، وتناول "زرادية", وعلبة فارغة من الصفيح. وكان كبير العمال لم يزل مستغرقًا في الكلام، وقد تحرك مع محدثه خطوات أخرى زادته بعدًا. وانحنى سمرلوف بخفة وفي يده "الزرادية ", وعلى الفور بدأ سائل لا لون له ذو رائحة شبيهة بقاتل الحشرات يقطر من إحدى مخففات الصدمات والهزات التي جهزت بها الشاحنة.

وكان سمرلوف حريصًا على أن يتتبع بنظره كبير العمال، وهو يتلقى

السائل في العلبة بحيث لا تسقط منه قطرة واحدة على الأرض، وكان سمرلوف صانعًا قديرًا.. وبعد أن أفرغ كل ما في الجهاز من سائل أعاد إحكامه بواسطة "الزرادية". وعندما رد "الزرادية" إلى مكانها من المنصة كان الأمريكي قد انتهى من محادثة صديقه وعاد إلى العمل.

بعد ستين أو سبعين ميلا سيكف جهاز تخفيف الصدمات عن العمل. وعندئذ.. ستكون هناك فرصة متاحة لمن عليه الدور في العمل.

واتجه هانز بكل هدوء إلى حيث يلحق بالأربعة الآخرين، ودخل المقصف وشرب معهم.. ولكنه حرص على أن ينصرف قبل أن يجروا القرعة.

أما ليندا فاستطاعت أن تستدرج جاك للحديث طوال فترة بعد الظهر في الحانة، فعرفت منه جميع التفاصيل.. وارتسمت التعاسة الشديدة على محياها. ولكنها استطاعت أن تتحكم في تعبير وجهها بعد قليل، فلا يطالع فيه الناظر شيًا سوى الخوف الذي جعل سحنتها تتصلب.

وجلست بمفردها إلى منضدة.. وأقبل أحد الزبائن النظاميين في خانة القرصان الأسود، وأخذ يتحدث إليها، فلم يظفر منها بكلمة أو نظرة على سبيل الرد. وعندئذ اقترب منها هرنانديز وهمس في أذنها بشيء.. فلم تفعل شيئًا سوى تحريك رأسها حركة خفيفة وهي تتنهد. فعاد هرنانديز يلح عليها أن تتلطف مع الرجل.. فقامت على مضض إلى مقصورتها، وتبعها الرجل وهي صامتة. وجعل هرنانديز يرهف أذنيه لما يدور من حديث وراء الستار. ولكنه لم يستطيع أن يتبين شيئًا واضحًا. وبعد لحظة خرج الرجل

مندفعًا نحو الباب الخارجي، وقد احمر وجهه احمرارًا شديدًا، وسحنته تدل على أنه يكاد ينشق من الغيظ, وجرى هرنانديز خلفه وهو يتوسل إليه أن يبقى.. ولكن الرجل صاح به في غضب:

– شكرًا لك.. لن أبقى.. إن هذه العاهرة الخلاسية تأبى أن تتنازل بالنظر إلى وجهي.

– صبرًا.. تمهل.. سأكلمها.. واسمح لي في هذه الأثناء أن أقدم إليك كأسًا من الويسكي الاسكتلندي.

وهي تحية مجاملة لا يمكن أن يتغاضى عنها أشد ثراء، ولذا هدأ الغاضب من ثورته وجلس إلى البار.

وارتفعت في الطريق ضجة أصوات تقترب من الحانة.. ثم دخلت مجموعة كبيرة جميع أفرادها يتكلمون بصوتٍ عالٍ.. وهم جيرار، وبمبا، ولويجي، وجون، وسمرلوف، وبرنادو الذي انتظرهم خارج معسكر الشركة.. دفعوا بأيديهم الأبواب المتحركة, وشقوا طريقهم إلى داخل القاعة.

وصاح الروماني يحدث الموجودين:

– لقد فزنا بألف من الدولارات عدًا ونقدًا في مقابل بضع ساعات من القيادة.. أجر أعلى من الأجر الذي يدفعونه لرئيس الجمهورية. لقد أخذوني وأخذوا جيرار.. وتستطيع الآن أن تدفع لنا ثمن المشروبات أيها الثري الأمثل جيرار.

فقال جيرار بحزم:

– لن نشرب شيئًا سوى القهوة نحن الاثنان.. فنحن الآن زميلان في القيادة، وأنت قد شربت اليوم ما فيه الكفاية من الخمر.

وخرجت ليندا من مقصورتها، وقد جعلها الجزع تبدو قبيحة. ولكن قبل أن تصل الفتاة إلى حبيبها جيرار، كان هرنانديز رب الحانة قد مال على أذنه وقال له شيئًا بصوت خافت.. فألقى جيرار على الفتاة نظرة باردة كالثلج، وقال بصوت متوعد:

– ليندا.

فوقفت في مكانها، وكأنما سمرها فيه صوت جيرار الآمر ونبرته المعدنية القاسية.

– اخدمي هذا العميل كما ينبغي.

وكان صوته هادئًا شديد الهدوء.. وكان في استطاعتها أن تقول فتكثر في القول.. وكان في استطاعتها أن تنفجر باكية بأعلى صوتها، ولكنها لم تفعل شيئًا من ذلك ولزمت الصمت. فمولاها قد أصدر قراره بما له من حق مطلق في الظلم والاستبداد، فلا جدوى في الاحتجاج.. لأنه شديد القسوة.. بل أدهى من هذا؛ أنه شديد التباعد عنها، يضع بينه وبينها حاجزًا قويًا.

فلو فعلت المستحيل لما فازت بالتأثير عليه، ولهذا لا تستطيع أن تحاول منعه من المجازفة بحياته, وهو سيغادرها الليلة حتمًا من غير أن يسمع كلمة واحدة من الكلمات التي يغلي بها فزعها وقلقها عليه أو حبها له...

والتفتت ليندا مستسلمة صوب الجواتيمالي الرابض فوق المقعد المرتفع أمام البار، وهو يرقب في أمل ما يجري تحت سمعه وبصره، متظاهرًا بعدم الاكتراث والتعالي.. وكانت نظرتها إليه حزينة يائسة، وشفتها السفلى ترتجف. ونظر إليها العميل نظرة صامتة، ثم تحول إلى جيرار وأحنى له رأسه انحناءة شكر يسيرة أردفها بعبارة شكر باللغة الأسبانية، ثم لمس ذراع ليندا وقادها نحو المقصورة...

وعندما انصرف العميل بعد برهة من الزمن، قام جيرار ولحق بليندا التي بقيت داخل المقصورة..

وما إن أزاح بيده الستار ليدخل حتى التفتت إليه والدموع ترقرق في عينيها وشفتاها ترتجفان, ولم تستطع أن تغالب ما اندفع على لسانها من كلمات، رغم محاولته اليائسة أن تلتزم الصمت:

– جيرار.. إنك لن تعود.. هذه العملية شديدة الخطورة، الجميع يقولون هذا.. يقولون أنها شديدة الخطورة.

– لا تشغلي بالك بما يقول الآخرون.. فكل منهم مستعد أن يضحي بأذنيه في سبيل الحلول محلي، ثم لن أكون وحدي، سيكون معي جوني.

– جوني!

– وما عيب جوني؟

ولم تجبه.. بل أحاطته بذراعيها وضمته إليها، وهي تنظر إليه نظرات تقطر أسى ويأسًا.

– كلما ازددت قسوة زدت لك حبًا.. أوه يا جيرار!

ونطقت باسمه على الطريقة الأسبانية التي تبدو فيها الجيم أنها غينًا حلقية.. وداعبها طمع أليم في أن تتمكن من إرجاعه عما عقد العزم عليه، مع أنها تعلم تمام العلم أنه لا سبيل إلى ذلك..

فقالت:

– جيرار.. أتوسل إليك ألا تذهب.

– لا شك في أنكِ جننتِ.. أتظنين أن هذه هي المرة الأولى التي أقدمت فيها على مغامرة بحياتي؟ لقد مررت بمخاطر أكبر من هذه.. ألا تريدين أن تمسي غنية؟ وأن تسافري؟ وأن تغادري هذا المكان الملعون المتعفن برائحة الموت؟ كل النساء الأخريات طلبن مني أن آخذهن بعيدًا عن هنا، ولكنكِ الوحيدة التي لا تريد أن تأتي معي.

ولم يتورع أن يلحق بهذا الكلام أكذوبة:

– ألا تريدين أن تري بلادي؟

فهزت كتفيها ببطء، فارتفع صدرها من تحت الغلالة الرقيقة التي تغطي جسدها الأسمر.. وقالت:

– حتى لو نجوت وعدت فإنك ستكون مثل جاك... ستعود رجلاً مسنًا أدركته الشيخوخة بين عشية وضحاها، وحتى إن عدت من غير أن يصيبك الجنون وصرت غنيًا، فإنك لن تأخذني معك، لأنك لا تنوي نية صادقة أن تأخذني.

ولكن جيرار لم يكن مصغيًا لما تقول.. كان ينظر إلى جسدها، ويداه تعصران كتفيها من تحت الغلالة الحريرية الحمراء التي تغطيهما.. ثم جذب طرفي الغلالة فهوت تحت قدميها على الأرض.. وشعر بجفاف مفاجئ في حلقه، فعصر خصرها بذراعه في عنف.. وتأوهت ليندا تقول بالأسبانية:

– يا حبيبي الأشقر الجميل.

ولكنها لم تشعر بأية سعادة.. ربما لأنها كانت شديدة القلق، أو لأنها أحست بطعم الموت على شفتي حبيبها المحبوب. ولم يخف على جيرار حالها، فكان عنيفًا في حركاته كأنه ينتقم منها.

وكان أشد عنفًا وقسوة وهو يتهيأ لمغادرتها...

لم ينطق أحدهما بكلمة طوال الوقت..

وكانت قاعة الحانه صاخبة.. وأقبل حمقى من جميع أرجاء المدينة إلى حانة القرصان الأسود كي يقدموا المشروبات احتفاء بالرجال الذين قد يتخطفهم الموت بعد ساعات.. فليس من المألوف في كل يوم أن يقدم رجال على شيء خطير كهذا. أما الأبطال فثبتوا أمام هذا الإلحاح، ولم يشربوا خمرًا.. ولم يكد يضعف منهم سوى جوان؛ لولا شدة رقابة زميله في قيادة الشاحنة لجرفه تيار السكر.

واشتبك جيرار في حديث مع هانز سمرلوف، وقال له:

– سواء حصلت على المال أو لم تحصل.. فسوف نأخذك معنا عندما نشتري ذلك الزورق.

– وابتسم هانز، وهز كتفيه قائلاً:

– شكراً لك على كل حال.. ولكني لست شديد التعلق بحياة الحر.. ثم إن الأمل يخامرني في أن الفرصة ستتاح لي في خلال يوم أو يومين.

وفي هذه المرة كان جيرار هو الذي هز كتفيه، وهو يقول:

– أعترف أن الطريق رديء جدًا.

فقال هانز بابتسامة عريضة:

– اجتهد على كل حال ألا تكون أنت الرجل الذي سأحل محله.

أما برناردو الصغير، فجلس في ركن وأمامه زجاجة روم تعطف عليه بها ربة الحانة، وأخذ يُسود وجه ورقة كبيرة بخط يدل على أنه تعلم الكتابة في مدرسة من مدارس القرى. وكان يجد عناء في التحكم في القلم الرديء، وهو يقبض عليه كأنه فأس فيحفر الورق, وتعلق بسنه ندف منه يزيله بأصابعه.. ثم يمسح دموعه فيتلوث وجهه بالمداد.

وكان خطابه على هذه الصورة:

"أمي العزيزة..

لقد حصلت على عمل في شركة من شركات الجنوب، والمدير له ثقة كبيرة بي, ويعهد إلي بمهام عظيمة.. ولا بد أن أبقى هنا سنتين أخريين. ولكن عندما أعود إليك سأكون غنيًا.

لقد توجهت لمقابلة قنصل الولايات المتحدة.. وكان رقيقًا للغاية، ووافق على تجديد جواز سفري، وأكد لي أن أهالي بوسطن يحبون أهالي

بييدمونت كثيرًا، وإنني سأجد هناك كل حفاوة.

وأنا أكتب إليك هذا الخطاب لأقول لك أنني سأكون مشغولًا بالعمل، وقد ينقضي وقت طويل قبل أن يصلك خطاب آخر مني. وعندما أصل إلى الولايات المتحدة، سأرسل إليك نقودًا تكفي لسفرك أنت وأشقائي الثلاثة إلى أمريكا.. وإليك وإليهم أبعث بقبلاتي يا أمي العزيزة.. إني أفكر فيك فيتشدد عزمي وأتقوى".

ابنك المحب

برناردو

وبعد أن وقع الخطاب بإمضاء ضخم مهيب، أغلق المظروف وكتب عليه عنوان أمه في قرية من قرى إيطاليا.. ثم نهض واخترق الموائد إلى حيث جلس جيرار يختتم حديثًا لا معنى له مع هانز سمرلوف.. حديثًا من تلك الأحاديث التي يتشاغل بها الناس انتظارًا لدقات الساعة.

ومال برناردو فوق ظهر مقعده الفرنسي، ومسح شفتيه بظهر يده لأن حلقه كان جافًا، وقال:

– لا تؤاخذني.

فصرخ فيه سمرلوف قائلًا:

– ابتعد من هنا.

فقال جيرار:

– دعه يتكلم.. ماذا تريد؟

– لا وجه للعجلة. عندما تفرغان من حديثكما.. وعاد إلى مائدته وجلس.. وبعد قليل أقبل نحوه هرنانديز، ووضع أمامه صندوق سجائر كبير, وكوبًا كبيرًا من الويسكي قائلًا:

– هذا هدية من جيرار.

ولم يرفع الفتى عينيه، بل قال:

– أريد ثقابًا أيضًا.

سجائر وخمر في آن واحد.. لقد نسي هذين الشيئين تقريبا، ولذا بدأ يسعل كسعال الأطفال من أثر الدخان والخمر.. والحقيقة أنه كان يرتد إلى الطفولة السعيدة، وهو يشرب ويدخن.. مع أن الأفكار التي في رأسه لم تكن أفكار أطفال، كانت همومًا ثقيلة. فأراح رأسه فوق مقدم ذراعه على المائدة، حتى بدا كالنائم.

وبعد قليل أقبل جيرار وجلس قبالته، فرفع الفتى وجهه إليه ثم أشاح عنه.

كان يبكي.

الفصل التاسع

هبطت ظلال الليل على مدينة لاس بييدراس، وعلى الشواطئ والضفاف والمستنقعات وخلجان النهر.. وانطفأت النوار في معسكر شركة الزيت الخام، أما الأضواء القائمة في بيوت السكنى فقد أضيئت كلها دفعة واحدة.

كانت المدينة في حالة ذعر، لأن أنباء الحمولة التي ستنقل هذا المساء ذاعت وانتشرت في طول المدينة وعرضها في ساعة ما بعد الظهر.. فأخليت جميع البيوت المتاخمة للطريق من سكانها على سبيل الاحتياط. ولكن الذعر شمل بعداوة سائر السكان؛ ولذا حدثت هجرة – على نطاق واسع– إلى التلال البعيدة. ولم يبق في المدينة إلا حفنة من العجائز، جعلوا يهزون رءوسهم ويغمغمون:

– إن حدث شيء فستكون في ذلك نهاية العالم.. فلماذا نرحل من هنا والنتيجة واحدة حيثما توجهنا؟!

وتكدست تلك المجوعة من العجائز في الكنيسة وخارجها.. وفي داخل الهيكل، كان القسيس منصرفًا إلى الصلاة بغير توقف.وعند بوابة معسكر شركة الزيت الخام، وقف أحد مهندسيها ليمنع من الدخول كل من ليس مختصًا بهذه العملية. وفي داخل البوابة صدر أمر بمنع التدخين منعًا باتًا.

وزمجر جوان بمبا وهو يسحق سيجارته على أحد أعمدة البوابة

الحديدية.

– يا لها من سخافة.. فقد قالوا لنا أننا نستطيع أن ندخن في الطريق, ولكن زملاءه لم يقروه على احتجاجه، مقتنعين بأن التطرف في الاحتياط لا ضرر منه، وهو أفضل من التقصير فيه.

والتقى الزميلان في القيادة جيرار وجوني ميخاليكو عند البوابة.. وكان جيرار مرتديًا بنطلونًا من بنطلونات العمل رمادي اللون، أشبه في شكله ببنطلون بيجامة مصنوعة من النايلون، وكان يحتفظ بهذا البنطلون للمناسبات الخاصة، ومن فوق هذا البنطلون سترة قصيرة الأكمام مفتوحة عند الصدر, وفي معصمه الأيسر سلسلة من الفضة, وفي قدميه صندل مكشوف.

وحملق جوني ميخاليسكو، وقد خامره الاعتقاد لحظة أنه في حلم.. فها هو ذا جيرار يرتدي بالضبط – وفي جميع التفاصيل– نفس الزي الذي كان يرتديه صديقه الحميم الراحل عندما ظل يطعنه حتى الموت، وحتى التعويذة المدلاة من سلسلته –وهي عبارة عن معبود أزتكي قديم– كانت هي نفسها تعويذة ذلك الصديق.. فشعر الروماني بنوبة من الفزع، لم يعهد لها مثيلاً من قبل، تتغلغل في أعماق روحه.

وبدأت الشاحنة الأولى تتحرك.. وأبطأت كثيرًا في الخروج، وظل السائقان يلوحان بأيديهما وقتًا طويلًا من نافذتيها قبل أن يواريهما أول منعطف في الطريق. وصحبت الشاحنة مجموعة صغيرة حتى الشارع الرئيسي في المدينة، ثم إلى أطراف المدينة نفسها.. وعندما عادت هذه

المجموعة إلى المعسكر، قال أوبرين لجيرار:

– ها أنت ذا ترى أن المسألة ليست فظيعة إلى هذا الحد.

ولم يجبه جيرار الذي كان ضمن مجموعة المودعين.

أما جوني فلم يذهب معه، وفضل البقاء بجوار شاحنتهما قائلا:

– لا رغبة لي في الرؤية.. حسبي ما سأفعله أنا.

وكانت قمرة القائد في الشاحنة واسعة, وفي الرف الموجود فوق رأسيهما كمية من المئونة الضرورية مثل السجائر, والثقاب, والسكر, والبسكويت. وبين الرجلين حقيبة كبيرة بها آنيتان كبيرتان من آنية الترموس مملوءتان بقهوة مركزة جدًا ومثلجة، وقنينتان كبيرتان من البراندي الجيد. وهذه الأشياء كلها ملفوفة لفًا جيدًا في طاقم من الثياب الداخلية الجديدة لكل منهما, وصدارين من الصوف.. فالرحلان قد تعودا الحياة في هذه المنطقة الحارة القطبية، ويعلمان بالتجربة أن رطوبة الصباح الباكر في هذه البلاد غير مأمونة الجانب.

أما السقف المطلي باللون الأحمر، فقد ألصقت به ورقة مربعة الشكل رمادية اللون، رسم فوقها الأخصائي الطبوغرافي بالشركة خريطة توضح لهما الطريق، وهو عبارة عن خط أحمر قاتم متعرج أشبه بخط البرق.. وإلى جوار هذه الخريطة ورقة أخرى بها تعليمات مفصلة عن طريقة السير والسرعة وجدول المواعيد ونوبات الراحلة والعمل والوقت الذي يتبادل فيه السائقان عجلة القيادة.

ولفت أوبرين نظرهما على هذه التعليمات، وفي لهجته ما ينم عن عدم اقتناعه بجدواها.. وقرر جيرار بينه وبين نفسه أن ينتزع الورقة بمجرد خروجهما من المدينة.. بيد أنه عدل عن رأيه في النهاية، وتركها حيث هي..

وقال له جوني:

– هل أتولى أنا القيادة أولاً يا جيرار؟

– كما تحب أيها الزميل.. تفضل.

ولكن كان عليهما أن ينتظرا اثنتي عشرة دقيقة أخرى هي الحد الأدنى من الوقت المتاح للشاحنة الأولى، كي تبتعد عنهما مسافة كافية للأمان.

واقترب منهما أوبرين، وقد جلس جوني إلى عجلة القيادة وقال:

– هل كل شيء على ما يرام؟

فقال جيرار:

– على ما يرام.

أما جوني فلم يقل شيئًا.. بل أخذ يداعب بأصابعه محرك السرعة، ويضع قدمه على "الدبرياج" والفرملة، ويجرب وضع كتفيه على ظهر المقعد.. ثم قال:

– إننا بحاجة إلى وسادة.. فالظهر بعيد.. وهذا سيتعبني.

ونزل جيرار وترك الباب مفتوحًا ليتجنب إغلاقه من غير لزوم، ولما

عاد وجد جوني قد أنزل بنطلونه إلى ركبتيه، وفتح قميصه حتى الخاصرة.. وطفحت فوق عارضيه حبات من العرق تلمع في الضوء الأحمر، فبدا منظره صورة مقلقة لإنسان يتصبب من الخوف عرقًا.

– خذ ضع هذه خلف ظهرك.. أمستريح أنت الآن؟

– نعم.

وبقي من الزمن ثلاث دقائق بتوقيت الساعة المثبتة في الشاحنة.. وساد الصمت، فكل من في المعسكر مصغ. واشتد توتر الرجلين الذين سينطلقان بالسيارة، كأن الرحلة قد بدأت بالنسبة لهما فعلاً، وكان صوت الشاحنة الأولى قد تلاشى من سمعهما منذ وقت طويل.. فإذا قدر لهما أن يسمعا لها صوتًا، فسيكون صوتا من نوع آخر غير صوت المحرك.

وبقيت دقيقة واحدة.. ومد جوني يده وضغط على الزر الأبنوسي الأسود, فصدر عنه صوت مثل صوت الطحن والسحق.. ولكن المحرك لم يستجب. وتراجع جيرار إلى الخلف في مقعده، وقد رفع رجليه أمامه في انتظار تحرك الشاحنة قبل أن يغلق الباب، وكانت المقصورة شديدة الحرارة بصورة لا تطاق، وستكون الحرارة فيها قاسية حتى حين يهب النسيم والشاحنة سائرة.

ومرة أخرى ضغط جوني على زر المحرك.. وكانت بطارية الكهرباء جديدة، وتعمل بصورة باعثة على الإعجاب. ومع هذا لم تدب الحياة في المحرك؛ فمد جيرار يده وأدار مفتاحًا صغيرًا وهو يقول:

– ربما صارت الآن أكثر انقيادًا، وقد فتحنا الاتصال بالبنزين. ولم

ترتسم بوادر الابتسامة على شفتي جوني.. وجعل يضغط بقوة لا لزوم لها على "الدبرياج" لأنه خائف أشد الخوف من انطلاق السيارة عفوا، مع أن محرك السرعة في الوسط المحايد الذي لا يمكن معه أن تتشابك تروس الحركة.

وضاق جيرار ذرعًا، فقال له:

– هيا أيها الزميل.. أظهر شيئًا من همتك.. فالجميع ينتظرون.

وأخذ جوني يرفع قدمه عن "الدبرياج" ببطء مثير للأعصاب.. وقضى وقتًا طويلًا جدًا وهو يتحسس دافعه الحركة ليضمن أقل قوة ممكنة للانطلاق. وكان "الموتور" يدور بنعومة ولا يحدث طنينًا.. والسرعة في هذه السيارة على خمس مراحل، فلم تكن هناك أية مخاطرة.. ومع هذا فالحيطة واجبة عند الابتداء بإدارة المحرك.

وأخذت الشاحنة الضخمة تزحف إلى الأمام بانسياب كأنها قطار من القطارات الفاخرة، بمجرد أن فتح أوبرين فمه وأمر بالتحرك.. وقفز مدير الأعمال الأيرلندي إلى سلم السيارة، ووضع يده على ذراع جيرار، وهتف قائلاً:

– خذا حذركما جيدًا.. وليحالفكما الحظ.

واختفى الرجل بعد ذلك في الظلام، ولم يبق أمام قمرة الشاحنة الحمراء سوى نفق ضيق من النور المنبعث من المصابيح الأمامية وسط بحر من الظلمات.

– أتريد سيجارة يا جوني؟

– أشعل لي واحدة.

وعلى ضوء عود الثقاب الذي أشعله جيرار، استطاع الفرنسي أن يرى لمحة واضحة من جانب وجه زميله الروماني.. رأي الفكين مطبقين والحاجبين بارزين إلى الأمام، ومن تحتهما تطل نظرة شديدة الوجوم.. ولكن أسوأ ما بدا عليه هو تلك الصعوبة الواضحة في التنفس. وعسى أن الانشغال بالقيادة سيسمح لأعصابه وعضلاته بشيء من الاسترخاء.

وقال جيرار متظاهرًا بالخفة والمرح كي يشجعه:

– ها نحن قد انطلقنا.. وأصبحنا غارقين في المسألة حتى الآذان.

ولم يظفر بجواب.

كانت السيارة تمر ببطء في الشارع الرئيسي، ولم تزل في المرحلة الأولى من مراحل السرعة. ولا يبدو على جوني التلهف على تغيير ناقل السرعة إلى المرحلة الثانية.. الأمر غير المعهود في القيادة العادية، ولكن في مثل هذا الطريق المتغضن البالي الذي تكثر فيه قوالب الأسمنت المحطمة والأسفلت الممزق، كان تصرف جوني ميخاليسكو حكيمًا من غير أدنى شك.

وكان أسوأ ما في الطريق هو تلك البرك اللامعة من الماء الآسن الممزوج بالزيت.. فالسلطات الصحية في المدينة تبذل جهودًا مضنية لسد هذه البرك الصغيرة, أو رش سطحها بالزيت لمنع انتشار الملاريا. ولكن

الإنسان لا يستطيع أن يعلم ماذا في قاع كل بركة، ولا ما هو مقدار عمقها.

وأخذ رجلان وامرأة عجوز، يرسمون الصليب على وجوههم عندما مرت الشاحنة أمام الكنيسة. وأشار القسيس بيديه ملوحًا بصورة غامضة، قد تعني المباركة وقد تعني الإبعاد.. وخرج جوني عندئذ عن صمته، فقال:

– يا للبلهاء! أنا لا أومن بالله.

ثم رسم الصليب من هذا فوق وجهه.. فقال له جيرار:

– ها أنت ذا تفعل مثلهم..

– الإنسان لا يضمن على كل حال هل هناك إله أو لا.

وبعد ذلك مرت الشاحنة أمام حانة القرصان الأسود، وكان جميع الزبائن المنتظمين هناك أو على الأقل من بقي منهم في المدينة غير مكترث للخطر. وكان ا لمجموع كله نحو ستة أشخاص على سلم المدخل وفي النوافذ. وصاح صوت من بينهم في الظلام:

– حظًا سعيدًا.. حظًا سعيدًا أيها الفتيان.

وردد الباقون ذلك الدعاء مرارًا.

وكان هانز سمرلوف هو الذي بدأ الهتاف.

وخرجت ليندا من المجموعة الواقفة حول الباب، وأخذت تجري بلا تردد أو وجل نحو الباب الأيمن الذي جلس بجواره عشيقها، وظلت تجري بجانبه مسافة طويلة، وهي تصيح لاهثة:

– جيرار.. لم أكن أريدك أن تذهب ولكن.. جيرار.

ولم يجب... بل إنه لم يكد يعيرها نظره، والواقع أنه كان مشدود الأعصاب إلى أقصى حد.

– ولكن ما دمت الآن قد ذهبت، فأنا أصلي كي يوفقك الله.. فلتكن السيدة العذراء في عونك. أنت رجلي وحبيبي يا جيراردو.

واقتربت خطوة أخرى من السيارة، ورفعت عينيها لترى وجهه الواجم الذي طالما أحبته.. وجذب من سيجارته نفسًا فأضاءت الجمرة الحمراء وجهه قليلًا، فبدت ملامحه لها جامدة قاسية.. وهمست إليه:

– ولا تثق كثيرًا بجوني.. إنه ليس مثلك.

وأخذت سرعة الشاحنة في الازدياد، فاضطرها ذلك إلى الجري الشديد.. فقال لها جيرار:

– ارجعي الآن يا ليندا.

– فليحافظ الله عليك وليباركك يا جيرار.

– سأحضر إليك عندما أعود.

وشعر جوني بمزيد من الطمأنينة والثقة، ونقل السرعة إلى المرحلة الثالثة.. وصاحت ليندا مرة أخرى.

– فليباركك الله.

وظلت تكرر هذه الكلمة لنفسها، وهي عائدة إلى حانة القرصان

الأسود حيث كانت حفنة من العملاء، الذين أثارتهم الظروف الاستثنائية، في انتظارها بصبر نافد وتلهف غير معتاد.

وأخذت الشاحنة الكبيرة ترتفع فوق بادية سفح الربوة الصاعدة إلى هضبة زولاكو.. ولم يكن الحمل ثقيلًا، فلم تكن في هذه المرحلة المبكرة صعوبات ذات بال, والطريق في هذه المنطقة ممهد وثير، فزاد ذلك من شعور جوني بالارتياح.. وصاح:

– قهوة.

فتناول جيرار أحد الترموسين الكبيرين، ونزع غطاءه، ثم ملأً فنجانا من البلاستيك لزميله في الظلام، لأن إضاءة مصباح القمرة الداخلي يحدث اضطرابًا في الرؤية بانعكاسه على الزجاج الأمامي.

وأبطأ جوني في تناول الفنجان، لأنه من غير شك لم ير يد جيرار الممدودة إليه في الظلام، إلى أن قال له:

– هاك.

ولم يتلق جوابًا.. وحملق جيرار في وجه زميله وهو يشعل سيجارته، فوجد يديه قابضتين على عجلة القيادة بشدة بالغة. وكان واضحًا أنه لا يستطيع أن يرفع أصابعه.. وحاول ذلك بالفعل مرتين؛ فلم يفلح، فقال له جيرار:

–أتنوي أن تتناول القهوة، أم سأظل أحملها في يدي طول الليل؟

فقال جوني باقتضاب:

– سأتناول قليلًا منهما فيما بعد.

فأطلق جيرار صفيرًا خافتًا، ثم شرب السائل المثلج من غير أن تكون له رغبة فيه. وبدأ له هذا سخيفًا مضحكًا، فالإنسان قد يكون من المناسب أن يتناول منبهًا وهو يصنع شيئًا. أما وهو لا يصنع شيئًا سوى الجلوس هكذا محملقًا في رجل أطار الخوف نصف عقله، فشيء لا معنى له.

الخوف.. إنه شخصيًا قد يكون خائفًا مثل جوني تمامًا، ولكن الخوف يعالج بمهدئ لا بمنبه..

هذا الخوف رابض لهما هناك، فوق ظهريهما، ضخمًا هائلا لا عقل له ولا اكتراث.. إنه خوف يملأ أرجاء النفس وليس منه مهرب.

ومع هذا فهناك وسيلة واحدة لمقاومة الخوف، وهي أن يرفض الإنسان الاعتراف به.. وهذا لا يحتاج إلا إلى العزيمة وقوة الإرادة، ولكن الخوف في هذه الحالة لا يبتعد عنك كثيرًا، وكل ما هناك أنه يربض في الانتظار مترصدًا لك خارج الباب.

وهذا ما يشعر به جيرار.. إنه يرفض الخوف، ولكنه يعلم أنه كامن بالمرصاد داخل أوعية النيتروجلسرين. ومن هناك يرقب كل حركة وينتظر كل فرصة، إلا أن جيرار يعلم أيضًا أن الانفجار حين يقع إنما يقع فجأة. وفي هذه الحالة لن يكون هناك متسع من الوقت للخوف.. لن يجد هذا الشيطان من يفزعه بعد الانفجار. ومع هذا فهو موجود، مقعيا مثل الوحش الهائل الماكر وذيله بين رجليه، يترقب أول فرصة يتحينها للوثوب.

الانفجار.. إنها كلمة السر.. الكلمة التي تطن في رأسه دائمًا فتذكره ببيت من شعر "تنيسون" في تمجيد ذلك الربان الذي نسف سفينته حتى لا يسلمها إلى يد الأعداء، ولكن هذا حدث حين كانت السفينة محملة بالبارود، والبارود ليس شيئًا بجانب هذا السائل اللعين الذي لا يبقى منك باقية, بل يحولك إلى هباء ضائع في الهواء.. أما البارود فتتبقى منه أشلاء. وحيث يكون هناك هيكل عظمي يكون ثمة بقية من أمل، لأن الهيكل العظمي على كل حال شيء ملموس منظور، تستطيع أن تبيعه أو تشتريه, وتستطيع أن تكسوه بالثياب. وهناك تجار لبيع الهياكل العظمية وشرائها.. وعملاؤهم في الغالب هم طلبة كلية الطب. أما حيث لا تبقى من الإنسان باقية، فأي رجاء هناك حتى ولو على الوهم؟

إن البطولة الحقيقية هي القدرة على أن تمضي في الطريق الذي بدأته بعد أن يتبين لك المغزى الحقيقي لما شرعت فيه.. وهذا هو الفرق الكبير الحاسم بين الرجلين.. فهذا جيرار لا يمكن لأي إغراء, أو رشوة, أو قوة من أي نوع أن تحمله على التراجع. وليس هذا فضيلة منه، فلا فضل له في تكوين طباعه على ذلك النحو.

إنه يكره طبعًا أن يموت.. ولكن غريزة التحدي والقتال عنده قوية، والخوف من الموت لا يشل عقله وتفكيره وحواسه، إنما هو خوف محدد متعين لا يسيطر على ذهنه، فينصرف تفكيره كله إلى العمل الجدي للخروج من المأزق.

أما جوني فهو خائف خوفًا شاملًا، وفزعه من النوع الذي يبقى أثره

فيمن يجربه مرة.. إنه من طراز جاك الذي جرب هذا النوع من الرعب مرة واحدة في حياته، فحوله هذا الامتحان إلى قطعة من الحطام البشري.

وظل جوني صامتًا لا يقول شيئًا، يقود الشاحنة بثبات وهدوء، ومع هذا كان الفزع العصبي مسيطرًا على سكونه.. وكلما ازداد ميل الطريق الصاعد، بدا عليه الخوف من رجوع السيارة إلى الخلف، وهو يغير معدل السرعة.. وهو تقدير غير معقول إذا راعينا قوة المحرك وخفة الحمولة؛ فليس من المنتظر أن تصادف الشاحنة أية متاعب قبل أن تصل إلى المنعطفات الثلاثة الضيقة في وسط الطريق الصاعد.. فتلك المنطقة وعرة لأنها محصورة بين كتف الجبل من ناحية, وبين هاوية سحيقة من الناحية الأخرى.. والانحدار فيها شديد والانحناء حاد. وعندما اقتربت الشاحنة من أول منحنى من هذه المنحنيات الثلاثة، قال جيرار:

– هل أضيء المصابيح الكبيرة؟

– كلا.

وتحير جيرار ما الذي يدور في ذهن جوني؟ ثم تحير مرة أخرى وهو يرقب حركاته.. أتراه يهم بالتوقف؟ يبدو أن الأمر كذلك.. وشاهده يميل إلى اليمين، وهو يرفع قدمه عن البنزين ويجذب فرملة اليد بحركة دلت على الغضب، وكأن عقبة غير منتظرة برزت فجأة في الطريق.. وفعلت فرملة اليد فعلها، فثبتت الشاحنة في مكانها بعد أن أوشكت على التراجع إلى الخلف حين أوقف المحرك. وشعر جيرار خلف ظهره باهتزاز مكتوم في أوعية النيتروجلسرين، فازدادت سرعة دقات قلبه.. وسأل جوني بحدة:

– ماذا أنت صانع بحق الشيطان؟

– أريد أن أصنع شيئًا طبيعيًا للغاية.. أتخلص من البول.

ولم يصدقه جيرار، وظل جالسًا حيث هو يصغي لخطوات جوني في الظلام. والواقع أن جوني لم يفعل ما زعمه، وإنما هو أراد أن يتوقف إما ليستريح قليلًا أو ليدع عجلة القيادة لجيرار في هذه المنطقة الشاقة.

وبرز جوني – بعد قليل– من الظلام عائدًا إلى القمرة، وهو يتظاهر بإحكام أزرار بنطلونه، وقال لجيرار بلهجة عادية كأن الأمر لا يعنيه كثيرًا:

– ألديك مانع من الحلول محلي قليلًا, لقد بدأت أشعر بالتعب.

هل تعب حقًا بعد اثني عشر ميلاً من القيادة؟

وانتقل جيرار إلى مكان القيادة.. ووجد المقعد نديًا.. ولحسن الحظ أنه كان مبتلا بالعرق ليس إلا.

– وهو كذلك.. اركب.

– كلا.. أفضل أن أمشي على قدمي قليلًا لتلين مفاصل الساقين.. وعليك أن تنتظرني بعد أن تنتهي من اجتياز المنحنيات.

– يا لك من خنزير.

وقبل أن يدير جيرار المحرك، أطفأ جميع المصابيح ما عدا الحمراء منها، فقد كانت متصلة ببطارية إضافية مستقلة. وبعد أن دار المحرك أعاد إشعال المصابيح، وضايقه ألا يكون بجواره زميله لأن المصابيح الأمامية لابد من تحريكها باليد.. وتحريكها ضروري كي يتبين مواضع العجل

بالنسبة لحافة الطريق. وفي الوقت نفسه، هو بحاجة إلى يديه كلتيهما كي يتحكم في عجلة القيادة.

وصادفته صعوبة أولى في إعادة فرملة اليد إلى موضعها من غير أن تهتز السيارة، وخصوصًا أن جوني كان قد ثبتها بعنف ضاعف من شدة فزعه الشديد. فجعل جيرار يناديه صارخًا في الظلام.. ولكن صوته كان يذهب سدى، ويعقبه الصمت، وكان واثقًا مع هذا أن جوني سمع نداءه، فهو لم يغادره إلا منذ دقيقة واحدة.

وأخذ جيرار يسب ويلعن، ويترجم سبابه من الفرنسية إلى الإسبانية، وبالعكس.. وأخيرًا نهض وغادر الشاحنة، وجعل يفتش على جانب الطريق إلى أن عثر على حجرين كبيرين، لم يستطع أن يحمل إلا واحدًا منهما في كل مرة لضخامتهما، ووضعهما تحت الشاحنة خلف العجلتين الأماميتين، حتى يخفف بقدر الإمكان من اهتزاز الشاحنة ورجوعها للخلف، عندما ينزع فرملة اليد من مكانها.

واكتشف أن تثبيت الحجرين وراء العجلتين، ليس مسألة يسيره.. فجعل يدقهما بقدمه, فلم يجد لذلك فائدة تذكر، فوقف والعرق يتصبب منه، يتصور ارتداد الشاحنة عندما ينزع الفرملة، ثم تذكر فجأة الرافعة "الكوريك".. فأحضرها بسرعة وجعل يرفع بها السيارة إلى أن ارتفعت العجلتان عن مستوى الطريق، فأسرع يدس تحتهما طرف الحجرين. وبعد ذلك جعل يخفض الرافعة ببطء حتى استقرت العجلتان فوق الصخرتين بإحكام.

وبعد أن اطمأن إلى ذلك، جفف العرق عن وجهه، وعاد إلى مكانه في القمرة، وركع على المقعد كي يترك لذراعيه معًا الحرية في معالجة تلك الفرملة العنيدة.

والحقيقة أن صلابة تماسك هذه الفرملة، كانت فوق التصديق.. فاقتضى فكها منه جهد ذراعيه معا مدة غير قصيرة حتى كاد يدركه اليأس منها.

وأخيرًا أفلح في فكها.. وتراجعت الشاحنة جزءًا من البوصة ليس غيره، ثم استقرت فوق الحجرين. وعندئذ أعاد تثبيت الفرملة، ولكن في حدود المعقول هذه المرة، بحيث يتسنى فكها بحركة أو لمسة خفيفة من قدمه.

وجلس ينظر إلى أصابعه، فوجدها دامية من تأثير مقاومة تلك الفرملة اللعينة.. وزمجر غاضبًا، ثم مسح يديه الداميتين في بنطلونه، ثم بحث فوق الرف عن علبة السجائر وهو يلهث.

إن أهمية هذا الذي حدث متصلة بتفاهته الشديدة.. إنه حادث تافه بالنسبة لسائق مدرب، بل هو أقل من لا شيء.. ولكن جو الليل الصامت الموحش، وتوتر الأعصاب الناتج من الخوف، جعلا الفزع يستولى عليه، وكأن هذه المشكلة لا نظير لها في الوجود.

ولكن أين عساه ذهب هذا الشيطان؟.. إنه لا يحس له في الظلام أثرًا.. وقال جيرار لنفسه:

– سأمضي في طريقي بدونه.. فليس هذا أسوأ على كل حال من

وجود هذا الزميل الخسيس. وفي استطاعة هذا النذل أن يعود إلى المدينة على قدميه.

بيد أن صوتًا خافتًا.. لعله ليس صوت الضمير، بل هو على الأرجح صوت الخوف الكامن، همس في أذن جيرار أن رأيه هذا غير صحيح، وأن قيادته للشاحنة طول الطريق في هذا الليل الرهيب الموحش هو أسوأ محنة يمكن أن يعرض نفسه لها.

وألقى جيرار ما تبقى من سيجارته في الهواء في ناحية الهوة، فرآها تتلاشى في الظلام من غير أن يظهر شررها، وكأنها سقطت في جُب.. والواقع أن الهاوية التي على جانب الطريق يزيد عمقها على ألف قدم.. وهي من الناحية اليسرى، من ناحية عجلة القيادة.

وأعاد تثبيت مقعده جيدًا، وأخذ في إدارة المحرك بمنتهى الهدوء والبطء.. وبعد أن وثق من دورانه، وخطا به مقدار قدمين فقط، توقف, ثم نزل ورفع الصخرتين من طريق الشاحنة حتى لا تمر من فوقهم العجلتان الخلفيتان..وعندما مضى بالشاحنة أخيرًا في الطريق السوي، كان قد أضاع في معالجة هذه المشكلة ثلاثة أربا ع الساعة.

الفصل العاشر

المنحنى الأول هو أسوأ المنحنيات الثلاثة، فهو منعطف حاد نحو صخرة ناتئة، والطريق في هذا الموضع يبدو وكأنه يرتفع ارتفاعًا شبه عمودي، والواقع أن معدل الارتفاع كان بنسبة الخمس؛ أي أن الطريق يرتفع مستواه مترًا واحدًا كلما قطعت الشاحنة فيه خمسة أمتار، ولهذا كان جيرار حريصًا على استعمال المرحلة الأولى من مراحل السرعة، فكانت الشاحنة تزحف نحو ذلك المنحنى ببطء شديد، ومحركها يرسل طنينًا عاليًا.

كانت الآلة تبدو وكأنها وحش هائل لا يؤمن له جانب، والجبل الناتئ عن يمينها وحش آخر أضخم وأشد خطرًا.. وبعد أن اكتسح جيرار الطريق بالنور الكاشف، ثبته إلى الجانب الأيمن كي يرى بدقة بطن المنحنى.. وحرص على أن يبتعد بعض الشيء عن حافة الجبل، عندما وصل إلى منتصف المنحنى كي يتسنى له الدوران مرة واحدة. وفي هذا الموضع زاد ضغطه على البنزين؛ فالآن ينبغي أن تبذل الآلة كل ما فيها من الطاقة.

ودارت عجلة القيادة في يده دورة قوية، وبدت الشاحنة وكأنها حيوان متمرد ماكر عنيد يأبى أن ينقاد إلى حيث يريد صاحبه أن يوجهه.. فالرأس يرتفع وينخفض، والعينان تحملقان بعناد في الظلام، والزمجرة والهدير ينبعثان

من الأحشاء.. وظلت الدابة العنيدة متشبثة بالطريق، تريد أن تلتصق بكتف الجبل وتصر على عدم الانقياد.

وأخيرًا، اعترفت الآلة بضعفها أمام إرادة الإنسان، وانصاعت لمشيئته.

وحول أول منحنى، بدأ معدل الارتفاع يقل, وأسرعت الآلة بعض الشيء. ونقل جيرار السرعة إلى المرحلة الثانية, ثم الثالثة، وبعد مائة ياردة بدأ المنحنى الثاني، ثم الثالث, ومن بعده يظل الطريق ساعة كاملة سهلًا ممهدًا بغير عقبات.

وظل جيرار يحملق في مسقط الضوء الأمامي باحثًا بعينيه عن جوني، ولكن دون جدوى..

ولا عجب! فقد كان جيرار يبحث عن رجل قائم منتصب القامة, أو على الأقل جالس، في حين احتاط جوني كل الحيطة؛ فرقد بطولة في أخدود على جانب الطريق.. ولكن إنصافًا له، نقول إن جوني لم يكن سادًا أذنيه بيديه.. وتوقف جيرار بالشاحنة إلى جواره وصاح:

– والآن؟

ولكن جوني لم يجبه.. فنفخ جيرار في البوق، وانتفض جوني قائمًا برأسه، ثم اعتمد على مرفقه، وأخذ يحملق مأخوذًا في الشاحنة وسائقها:

– أظنني.. أظنني نمت، لا بد أن هذا هو ما حدث لي. لقد نمت، وهذا شيء يحدث لكل إنسان.. لماذا بحق الجحيم تضحك؟ أقول لك إني

كنت نائمًا.

وكان جيرار يضحك من كل قلبه، وكتفاه العريضتان تهتزان من خلال نافذة باب القمرة، ثم قال:

– تصور هذا! تصور أنك فيما أنت متمتع بنومك الهنيء، نزلت أنا إلى الشاطئ وأخذت حمامًا جميلًا.

وفجأة كف عن الضحك، وقال بهدوء:

– يا لك من خنزير.

وأخيرًا نهض جوني واقفًا على قدميه، وبينما هو يدور حول الشاحنة ليركب إلى جواره انطلق بها جيرار وتركه، فجعل يجري ويقفز فوق سلم القمرة، ثم فتح الباب والسيارة ماضية في طريقها، ودخل وجلس من غير أن ينبس بكلمة واحدة.. وانقضت بضعة أميال من الطريق المظلم والرجلان لا يتكلمان.. وأخيرًا قال جوني:

– ليكن إذن ما تريد.. أنا مذعور، خائف.. وهو كذلك, ولكن أتريدني أن أعتقد أنك لست خائفًا؟

وكانت في صوته نبرة تحدٍ.. ولم يجبه جيرار، فانطلق جوني يقول:

– إنكم تمرضونني يا معاشر المتكبرين, وأظنك مشغوفًا بالخطر.. تفتنك فكرة الموت, ليكن.. أما أنا فلا ثم لا.

– إذن ماذا تصنع بحق الجحيم هنا؟

– أنت تعلم تمام العلم ماذا أصنع بحق الجحيم هنا ؟ إنني هنا

لأحصل على أجر السفر إلى مكان آخر. ولكن لم يخطر بذهني أن العملية ستكون بهذا الشكل.. الموت فيها معلق فوق رأسك، وعلى أهبة الانقضاض عليك في أية لحظة. وأنت تظن أنك تستطيع أن تتحداه.. أليس كذلك أيها الفتى الباسل؟ أنت لا تشعر بالخوف، ولا تحس به يتحسس ظهرك وعنقك، ويتمشى إلى أعلى وإلى أسفل في عمودك الفقري. إنك لست من لحم ودم على الإطلاق.. أنت لست بشرًا، ولهذا فأنت عندي بغيض، كريه.. أتسمعني؟ لا بد أن تكون مخلوقًا من طينة غليظة غير طينة البشر، كي تثبت لمثل هذا الأمر هذا الثبات، ولكني لست مسخًا غير بشري مثلك.

وقال جيرار بهدوء قاتل:

– أنت إذن واحد من ذلك الطراز الشديد الحساسية من الناس.. أنت بريمادونا بلهاء، استولت عليها نوبة من نوبات الغضب والسخط, ولكني للأسف يا صاح لست مستعدًا أن اشترك معك في هذه اللعبة، وأشغل نفسي بتمثيلك.. أغلق فمك القذر وإلا أغلقته لك بنفسي.. هيا.. اذهب من هنا بسرعة.

وأوقف الشاحنة في منتصف الطريق، ومال ففتح بيده الباب الأيمن.. وحملق جوني في وجهه مفتوح الفم، ولكن من غير أن يتكلم أو يبدي أقل حركة تدل على استعداده للنزول. وبدأ غضب جيرار تخف حدته، ونزل من الشاحنة ودار حولها إلى الجانب الآخر، ووقف أمام الباب المفتوح وقال لجوني:

– ألا تنوي أن تنزل؟

وكان ضوء المصابيح الأمامية من خلفه يخفي قسمات وجهه، ولا يبدي شحوبه الشديد، وكان يتكلم مغلق الشفتين بصوت منخفض أجش.

وأجابه جوني بصوت يبدو وقد عاد فجأة إلى رنينه الطبيعي:

– كلا.. فأنا بحاجة إلى هذه النقود.

وأجفل جيرار.. فهو لم يكن موهوبًا بملكة حسن فهم الآخرين، واستطرد الروماني يقول:

– إنني آسف يا جيرار, لا بد أني كنت مجنونًا.. لا أدري ماذا أصابني.. كلا، بل أنا أدري؟ إني لم أشعر بمثل هذا الفزع في حياتي كلها، ولكني سأتغلب عليه، سأبذل مجهودًا كبيرًا. وها أنا ذا أشعر الآن بتحسن عام في أعصابي، وسترى بنفسك.

وأحس جيرار فجأة بخمول.. لابد أنه من تأثير توتر أعصابه. وكانت إحدى أصابعه الجريحة تؤلمه، فهز كتفيه وقال:

– حسنًا.. يحسن الآن أن تتولى القيادة فترة من الوقت، وسأعود إلى عجلة القيادة عندما يصبح الطريق رديئًا.

وألقى بنفسه في المقعد الحالي، وتولى جوني القيادة.. وعادت الشاحنة الحمراء إلى زحفها البطيء.

هذه الشاحنة الحمراء ذات شخصية غريبة ولا شك.. ففيها شحنة ثمينة, وفيها مخلوقان بشريان، وليل المنطقة الإستوائية الثقيل ضارب بظلمته

من حول هؤلاء جميعًا، ثم لا ينبغي أن ننسى الأهمية الكبرى التي يعلقها كثيرون بعيدون عن هذا المكان على تلك الشاحنة، وآلتها الهادرة تُغني جملة موسيقية واحدة متكررة., وفجأة صاح جيرار:

– يا إلهي.. لقد كنت نائمًا.

ويبدو أن هذا الاكتشاف أشعره بالرضا الشديد عن نفسه، وعندئذ دار الطريق حول منعطف سهل واسع يحف به كتف الجبل. وهناك انتهى الطريق الممهد فجأة بغير نذير سابق.

وكاد جوني يؤخذ على غرة.. وعلى الرغم من عزمه الشديد على التحكم في أعصابه، ضغط بعنف على الفرامل بمجرد أن وقع بصره على الحفر والأحجار وهي تندفع نحو عجلات شاحنته، ولكن عندما رفع إليه جيرار بصره، والتقت عيونهما، ابتسم جوني ابتسامة اعتذار. وأدرك جيرار أن زميله قد أصبح أهدأ أعصابًا، وإلا لما استطاع أن يبتسم بهذه الصورة بدلا من أن يذعر.. وجيرار إنسان باسم هادئ الأعصاب، يحب في الناس أن يكونوا على شاكلته.. ولذلك قال له:

– هون عليك يا صاحبي، قف الآن ودعني أحل محلك.

ولكن الاثنين ترجلا أولًا، وجلسا على نهاية الطريق، وتدلت أقدامهما على الأرض الرملية المنخفضة، حيث السبيل عبارة عن درب مضطرب وسط متاهة صحراوية. وفي هذه الجلسة، تناول الاثنان وجبة خفيفة.. وقال جيرار، وفمه ممتلئ بالطعام:

– لا حيلة في الأمر.. فلو أن جميع الفتيان الذين تمنوا هذا العمل

لديهم أدنى فكرة عن حقيقة الواقعة لما تحسروا وتحطمت قلوبهم أسفًا على إفلاته من أيديهم.

– إنهم بلهاء.. وذلك الفتى برناردو أعتقد أنه سيقتل نفسه.

– لا تقل هذا.

– لقد حاول أن يقترض خنجري... وطبعًا لم أعطه إياه، حتى لا تجده الشرطة من الجثة.

– أتظنه ينوي أن يصنع هذا بنفسه حقًا؟

– لقد أعطيته على كل حال نصف دولار ليشتري حبلاً.. وقلت له إن الذين يشنقون أنفسهم يموتون على الأقل ورؤوسهم في الهواء.

– أتظن نفسك ظريفًا؟ ومع هذا.. رباه كم هذا مضحك.

– ماذا؟

– لقد حاول أن يقترض مني نقودًا كي يقضي وقتًا مع ليندا، والآن أدركت أنه كان يتمنى الحصول على هذه الرغبة الأخيرة قبل أن يقتل نفسه، كتقاليد أحكام الإعدام.

– أحقًا؟.. وهل أعطيته المبلغ؟

– كلا.. ولكني قلت كلمة لليندا، إلا أنها لم تكن في حالة تسمح لها بالإصغاء. وهذا يحزنني لأنه يدل على أن سوء الحظ يلاحق هذا المسكين حتى في أمنيته الأخيرة المتواضعة، فالحرمان يصر على مطاردته وتعقبه حتى القبر.

وفرغ الرجلان من طعامهما، فنهضا وذهبا ليفحصا معًا الخريطة التي ترشدهما إلى الطريق.. وتبين لهما أنهما قضيا ساعتين قطعا فيهما خمسة وعشرين ميلا هي أسهل جزء من الطريق.. وعلى هذا المعدل سيحتاجان إلى ليلتين كي يصلا إلى غايتهما.

إن الجزء الذي يمتد أمامهما الآن وعر لمسافة خمسة عشر ميلاً.. فهناك حفر عميقة كبيرة تكفي لتحطيم اللوالب في سيارة جيب عادية. وهذه الحفر يجب أن تجتازها الشاحنة واحدة واحدة على الدرجة الأولى من درجات السرعة، ومن غير أدنى ضغط على البنزين، كي تزحف العجلات بوصة بوصة، وتنزلق واحدة واحدة بلطف داخل الحفرة، ثم تصعد واحدة واحدة بلطف إلى خارجها.

وجلس جيرار إلى عجلة القيادة، وقبض عليها بيديه معًا، كما كان جوني يقبض عليها في البداية، ولكن ليس من الصواب أن يعاب عليه هذا الآن، لأن طبيعة الطريق أصبحت تتطلب الدرجة القصوى من الحذر، وظهرت على جبينه قطرات جديدة من العرق، ولكن ماذا كان يستطيع هو أو أي إنسان سواه في هذا الموقف عدا أن يسير ببطء شديد جدًا، ويحاول أن يتجنب الهزات الفظيعة التي تصادف مقدمة السيارة حتى لا تنتقل إلى الجزء الخلفي منها، وبأطراف الأصابع يستطيع الإنسان أن يتحسس هذه الهزات، لأن عجلة القيادة تبدو أحيانًا وكأنها تهم أن تتحطم أو تفلت من قبضة اليدين. وحذرًا من هذه النوبات من التمرد، كانت القبضة لا بد أن تشتد على عجلة القيادة.

ولم يكن هناك سبيل إلى التخفيف, أو التهاون, أو الاسترخاء ولو للحظة واحدة.. فكلما خرجت العجلات الأمامية من حفرة هبطت إليها العجلات الخلفية، وكلما خرجت العجلات الخلفية من حفرة دخلت العجلات الأمامية في حفرة أخرى، وجيرار يصفر من بين أسنانه، ويمد رقبته إلى الأمام ليمعن النظر. وبين الحين والحين يطلق زفرة عميقة، ويريح ظهره إلى الخلف قليلًا، ثم لا يلبث أن يعود إلى التوتر, وبذل الجهد العنيف, وإطلاق الصفير الساخر من بين شفتيه.

وقال له جوني بعد فترة مضت على هذه الوتيرة:

– ألا تستطيع أن تغير لنا النغمة؟ أنا أيضًا أفكر في هذه الأغنية، ولكني على الأقل لا أتفوه بها.

– ماذا تعني؟

– أعني الأغنية التي تصفر بها.

– وما هي؟

– "عندما تموت سأضحك منك كثيرًا."

– أهذا ما كنت أصفر به؟ لم أكن أدري.. والآن فلنوجه ضوء المصابيح الأمامية إلى اليمن.

وأضاء الجانب الأيمن من الطريق بالضوء القوي، والشاحنة تزحف إلى الأمام في أرض مستوية.. فصاح جيرار:

– يا إلهي, لا بد أن التعب قد نال مني.. فقد أوشكت أن أقسم

على أنني أرى حفرة كبيرة.

– أنتظر.. توقف واسترح دقيقة.

– كلا.. أعطني سيجارة.

وأخذت سحب الدخان تتلوى خارجة من أنفه وفمه، فأضفت شيئًا من الحيوية على القمرة التي جلس فيها الرجلان صامتين لا يتحدثان، فجيرار مشغول عن الكلام بالقيادة.. وجوني مشغول عن الكلام بالخوف وبالاجتهاد في عدم إظهار خوفه..كل منهما كان بمنعزل عن الآخر في عالمه وطباعه، ولا أمل في أية صلة بينهما.. فجوني جالس وأنفاسه متجهة إلى الزجاج الأمامي يحملق في الطريق، وكأنه يتوقع منه أن يقفز إلى وجهه.. وقدماه طول الوقت تتحركان حركات قيادية وهمية؛ وهي حركات لا فائدة منها سوى أنها تنفس عن توتر أعصابه. ولكن كان يجد عناءً شديدًا في مغالبة الصراخ عند كل حفرة تظهر في الطريق، وأحيانًا كان الصراخ يفلت من بين شفتيه ويصيح:

– ماذا أنت صانع بحق السماء؟

وبدا جيرار يسأم صحبته ويزداد ضيقًا به.. وكان يغيظه منه على الخصوص أنه يعهده فظًا خشنًا حين لا يتطلب الموقف أدنى خشونة، بيد أنه لم يظهر ضيقه، ولم يحنق عليه، بل كان يرثي له..

وفي المسافات القليلة التي كانت القيادة لا تحتاج فيها إلى ذكاء فرط, بل تكفي لها الدقة والحذر، كان جيرار لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير. وقد علمته التجارب والسن أن الأحلام والآمال من أشد أعداء

الإنسان عليه. ومع هذا كان يسمح لنفسه على سبيل الترويح أن يتصور حزمة من الأوراق المالية الملونة، أو أن يتصور المطار الكبير في ضواحي لاس بييدراس وهو واقف أمام نافذة بيع التذاكر وفي يده حقيبته. ولكنه سرعان ما ينفض هذه التصورات من مخيلته ليرتد إلى الفراغ المظلم الموحش والشاحنة تزحف إلى الأمام ببطء شديد خاضعة لقبضة يده.

– أشم رائحة نار.. نار.. قف.

وقفز جويي من مقعده بعنف شديد, حتى إنه كاد يرتطم بسقف القمرة، ولكزه جيرار لكزة قوية أجلسته مكانه عندما حاول أن يضع يده على عجلة القيادة.. وتهاوى جويي في مكانه وأطلق صرخة, ثم فتح الباب وقفز إلى الأرض. وأغلق جيرار مفتاح الآلة وترك الشاحنة تقف من تلقاء نفسها.. ثم قفز هو الآخر بسرعة إلى الأرض.

وكانت النظرة الأولى كافية لبث الطمأنينة في نفسه، فكل ما هناك هو خيط من الدخان الأبيض خارج من وراء العجلة الأمامية اليسرى.

– جويي.. أين ذهبت؟ لا شيء هناك.. لابد أن ألياف الإطار اشتدت عليها الحرارة.

وبرز جويي من الظلام، وأتى بمصباح الكشف من تحت مقعد القيادة، ثم أتى بالرافعة. وأقبل جيرار بنفسه يفحص مصدر الدخان، ومال جويي إلى جواره.. واطمأن الاثنان إلى أن الأمر ليس ذا بال, وفجأة لمح جويي شيئًا جعله يصيح لينبه جيرار:

– ماذا جرى؟

– انظر إلى الجانب الآخر.. هذا اللولب، إن رباطه غير محكم، فهناك مسمار مفقود منه.

– أين؟

– هناك من أسفل.

– إنه يبدو على ما يرام.

– كلا.. بحق السماء, هناك شيء ناقص في هذا اللولب، انتظر دقيقة.. إنه ها هنا.

وتعلق جوني باللولب بكلتا يديه، ثم تركه فاهتزت الشاحنة اهتزازًا ملحوظًا، وعندئذ قال جوني:

– لا يمكن أن يكون داخل جهاز تخفيف الصدمات سائل كاف, وكان جيرار قد زحف على بطنه إلى جوار جوني تحت الشاحنة، ووجه مصباح الكشف إلى جهاز تخفيف الصدمات. ولاحظ على الغطاء المغطى بالتراب آثار آلة، فأخرج جيرار منديله وبصق عليه ونظف الغطاء من التراب، فظهر أثر ضغط الآلة لامعًا. وتبادل الرجلان النظرات، وشعرا في هذه اللحظة أنهما رفيقان حقًا.

وبدأ جيرار يفك الغطاء قليلًا، فكان من المفروض أن يطل على الفور السائل الخاص.. ولكن لم تظهر إلا قطرة واحدة. وعندئذ قال جوني بصوت ناعم كالمخمل:

– والجانب الآخر؟

ولكن الجانب الآخر كان على ما يرام، وليس على الغطاء أيّة علامة تدل على العبث بالجهاز. وكان محكمًا في إغلاقه، فوجد جيرار صعوبة كبيرة في تحريكه نصف دورة.. وعلى الفور ظهر السائل.

ووضح لهما أن العمل بفعل فاعل يقصد التخريب، فليس في ذلك أدنى شك. وساد الصمت بين الرجلين برهة طويلة، وكأنهما لا يصدقان عيونهما. وعلى كثرة معرفتهما بضعف النفس البشرية، لم يخطر ببالهما أن الإنسان يمكن أن يصف بهذا المستوى من الخساسة. والآن عرفا أن النذالة لا يمكن أن يكون لها قرار.. فكلما ظن الإنسان أنه التقى بأحط الأنذال، ظهر نذل يتفوق على جميع من سبقه من الأنذال، ولا شك أن هانز سمرلوف يجدر به أن يصلي بحرارة حتى لا تكتشف علاقته بهذه الفعلة، لأن هذين الرجلين لو عرفا الحقيقة لما ترفقا به.

– أيوجد شيء من السائل الخاص بهذا الجهاز في صندوق الآلات؟

– لا أظن ذلك يا جوني.

– وما هي سعة كل من هذين الجهازين؟

– لا أدري على وجه التحقيق، ولكنه يسع ما يكفي لملء زجاجة كوكا كولا على ما أعتقد.

– إن لدينا ماء للشرب.. وأظن أنه يمكن أن يؤدي نفس الغرض.

– أعتقد هذا.. ولكن الماء يفسد تيل الفرامل في النهاية إذا ما ترك وقتًا طويلاً، أما لهذه الفترة القصيرة.

وبعد عشر دقائق، فرغا من وضع الماء في الجهاز الفارغ من الزيت، واختبراه بعض الشيء.. ثم استأنفا طريقهما.

وقال جوني، وهو يستقر بجوار زميله السائق:

– لا أتصور أن إنسانًا يقدم على مثل هذا.

فقال له جيرار بهدوء:

– هذا يتوقف على الزاوية التي تنظر منها إلى المسألة.

– ماذا تعني؟

– اسمع يا بني.. إن الآدمي الذي فعل هذه الفعلة كان يريد الحصول على العمل. هذا صحيح أليس كذلك؟ ولما لم يحصل عليه صارت فرصته الوحيدة أن تنفجر بنا الشاحنة. وأراد هو الحصول على هذه الفرصة.. أراد ذلك أو على الأصح كان بحاجة إلى هذه الفرصة، لأنه بحاجة إلى الألف دولار.. أفهمت مرادي؟ إنه في موقف كموقفنا، إنه مثلنا، مثلي ومثلك.. هل أدركت ما أعني؟

– ولكني.

– إنه مثلنا تمامًا.. وكل ما هناك أنك تتيه زهوًا بالعثور على وغد أشد نذالة منك. هذا هو ما يفرحك ويرضيك عن نفسك. اضرب صفحًا عن هذا كله، فكلنا من نوع واحد.. وكل الخلاف بيننا في درجة الخسة لا في جوهرها.

– وما هذا؟

– لست مع هذا أيها الأخ, وأنا شخصيًا لا أدري أي الرجلين أفضل، ذلك الرجل الذي لا يتورع عن نسف إنسانين ليحصل على المال، أم من هو مثلك يريد أن يقبض النقود ولكنه يترك عبء المخاطرة كلها على كتفي، وينجو بجلده عندما تتأزم الأمور.

وصمت جوني وأخذ يدخن في وجوم.. والشاحنة مستمرة في طريقها عبر الوهاد والحفر، وجيرار لا يجد الفرصة للانتقال إلى الدرجة الثانية من السرعة، وهي خمسة عشر ميلا في الساعة.. وهي سرعة غير كبيرة، ولكن لا سبيل إليها لأن الشاحنة كانت تتراقص لوعورة الطريق كلما زاد السرعة قليلاً فوق العشرة أميال.. فيعود إلى سرعة السير على القدمين، والليل يبدو طويلاً لا ينتهي.. والطريق يبدو طويل لا ينتهي.

الفصل الحادي عشر

ساد الصمت في القمرة.. كان صمتًا ثقيلًا يملأ الليل، ويجعله شديد الوطأة، ويزيد من وحشة هذا الجانب المقفر من الخلاء..وبزغ البدر كاملًا في السماء، فأضاء ذلك السهل المترامي، وكأنما قد برز قرصه بطريقة خفية من حيث لا يدريان، وبددت أنواره العمودية كثيرًا من الظلام، ولكنها ملأته بما يشبه الأطياف والأشباح.. وكأنما الكابوس الذي يعيشانه داخل رأسيهما قد انقلب حقيقة واقعة يحيط بهما من كل جانب.

وفي هذا الجو المشحون بالنذر والمخاوف، كان الخروج من كل حفرة يبدو لهما معجزة، لأن النزول في كل حفرة كان معناه بالنسبة إليهما نهاية محتملة، وصارت حافات الحفر في ضوء هذا البدر اللعين واضحة رهيبة؛ فكان جيرار يبادر برفع قدمه عن البنزين ليضغط بعض الشيء على الفرامل في خفة شديدة، فلا تصل الشاحنة إلى قاع الحفرة بقوة الآلة, بل بقوة دفعها الذاتي.

وتصبب وجههما عرقًا كأن المطر ينهمر فوقهما، وحفرت قطراته أخاديد في وجهيهما وعنقيهما.. وتصبب جانب من تلك القطرات مباشرة من منابت الشعر إلى القميص، وبين الحين والحين كان جوني يجفف وجهه بمنديل كبير. وتوقف جيرار مرتين ليلتقط أنفاسه، ويطفئ المصابيح، ويشعل

سيجارته ويدخنها في توتر شديد. وكان جوني يدخن أيضًا، وشفته السفلى ترتجف قليلًا.. ثم يستأنفان السير من غير أن ينطلقا بكلمة واحدة.

وشيئًا فشيئًا أخذ الطريق يتحسن بصورة تكاد لا تلحظ. وعلى ضوء الخريطة، عرفا أن معدل السرعة في هذا الموضوع هو ثلاثة أميال في الساعة، وها هما ذا قد قطعا أحد عشر ميلاً في ثلاث ساعات ونصف.. وهذا يدل على أنهما متقدمان قليلاً عن الوقت المحدد.

إن الحفر الآن أقل عددًا.. وإذا شاء الرحمن، ففي مدى ربع ساعة يصلان إلى طريق ممهد صلد به شقوق من أثر السيول، ولكنها شقوق صغيرة، وهذه المنطقة يجب أن يجتازاها بسرعة كبيرة نسبيًا؛ أي لا تقل عن خمسة عشر ميلاً في الساعة، والمهم هو السير بتلك السرعة من غير هزات عنيفة.

وقال جيرار في المنطقة السوية من الطريق:

– يجب الآن أن تتسلم عجلة القيادة يا صاحبي، فلم يعد في مقدوري أن أستمر أكثر من هذا.

واجتازت الشاحنة الحفرة الأخيرة في ذلك الطريق، ثم توقفت ونزل جيرار متعبًا إلى درجة الإعياء.. ونزل كذلك جوني، وكانت أصابع جيرار تؤلمه ألمًا شديدًا وقد بدأت تتورم، لأن شدة القبض على عجلة القيادة ألهبت الجروح السطحية والرضوض، وجفف جيرار راحتيه على بنطلونه. وهبت لفحة رخية من النسيم جعلتهما يرتعدان بسبب تبلل ثيابهما بالعرق.

وخلع الاثنان قميصهما، وتركا صدريهما يجفان في الهواء، ثم ارتديا قميصين نظيفين، وتولى جوني عجلة القيادة وسار وكأنه سائق مبتدئ.. فكانت أعصابه ترتجف وهو يضغط على الأدوات والآلات، أما عصا نقل السرعة فكان يلمسها وكأنها قطعة من الحديد المحمي.

وكان الطريق منبسطًا أمامهما وكأنه مرصوف، لولا تلك الأخاديد الصغيرة المتلاصقة.. وأنواع المصابيح الأمامية تضيء لهما إلى مسافة مائة ياردة، وأخذ مؤشر السرعة يتراوح بين اثني عشر ميلاً, وخمسة عشر ميلاً في الساعة, وهو يسير على الدرجة الثانية من درجات السرعة.

ووصلا إلى منبسط رملي يبدو ناعمًا للغاية.. والقيادة في هذا الرمل عسيرة خصوصًا عند المنحنيات، ولحسن الحظ لم تكن هناك منحنيات, ولا بد لاجتياز هذه المنطقة من زيادة السرعة. فطلب جيرار بإلحاح أن يضغط على البنزين.. وتردد جوني ثم أطاع, ولكنه ضغط ضغطًا خفيفًا مترددًا؛ فارتفعت السرعة إلى خمسة وعشرين ثم إلى ثلاثين ميلًا. ومع هذا بدأت السيارة تتلكأ وتضطرب.. فما لم يزد السرعة زيادة عاجلة، اهتزت الشاحنة اهتزازًا غير مأمون العاقبة. وصاح جيرار:

– أسرع بحق السماء.. اضغط على البنزين، وانقل السرعة.. أمامك عشر ثوان فقط وإلا ضاعت الفرصة.

ولكن الفرصة ضاعت.. وبدأ مؤشر السرعة في التراجع. ثم بدا كأن الشاحنة تسير بقوة القصور الذاتي, وأخذت حركات جوني تضطرب، فجمع جيرار كل قوة تحكمه في أعصابه وقال:

– يحسن أن تقف لحظة.

وقف الروماني مذعنًا.. ثم جعل يتنحنح ويبصق من النافذة، والتفت ببطء نحو جيرار:

– هذا فوق مقدوري.. أنا خائف.. ولا حيلة لي في ذلك.. خائف.. خائف.

وزفر جيرار زفرة عميقة أشبه بالابتهال.. فهو يدرك تمام الإدراك أن هذه اللحظة ليست أنسب اللحظات لإطلاق العنان لغضبه، وآثر ألا يتكلم، فقال جوني مستطردًا:

– أرجو أن تفهمني.. أنا لا أريد أن أخاف.. ولا أحب هذا لنفسي. والله على هذا شهيد، فهو يعلم أني غير سعيد بهذا الفزع, وأريد أن أتم هذه العملية، وأقض المبلغ وأغادر هذه البلاد، ولهذا لا أريد أن أتراجع وأترك العمل.. لا أريد أن أتركه.

– أنت فعلاً لا تتركه.. ولكنك تترك عبء العمل كله على كتفي لأنك خائف بدرجة تشل تفكيرك وحركاتك.

– المسألة تمت هكذا.. عندما أردت أن أزيد السرعة إلى غايتها القصوى, شعرت أنني على وشك الإغماء. وبلغ بي الذعر أنني لم أستطع أن أحرك قدمي.. هذا هو الموقف، فماذا نحن صانعان الآن؟

واستغرقا وقتًا طويلاً للوصول إلى قرار، فهما لا يستطيعان أن يستمرا في القيادة بمعدل عشرين ميلا في الساعة, ثم فضلاً عن هذا، هناك اعتبار

آخر.. فحينما يكون الموت مكومًا فوق ظهر الإنسان لا بد له أن يسرع في السير كي يلقيه من فوق ظهره ويتخلص منه.

ومن جهة أخرى، لا يتوقعان أن يجدا في الطريق منطقة رملية مثل هذه يرفعان فيها السرعة إلى معدل معقول. وخرج جيرار من القمرة وترجل، وأخذ يفحص الأرض بمصباح الجيب، ورأى آثار عجلات شاحنة لويجي. ولاحظ أنها كانت مسرعة في هذا الموضع لأن آثار الرمال على الجانبين تناثرت إلى مسافة بعيدة.. حقًا إن لويجي سائق ماهر متين الأعصاب.. حياك الله يا لويجي.

والآن ما العمل؟

هل يدوران بالشاحنة ويعودان أدراجهما إلى أول المنطقة الرملية ليعيدا السير ويحققا السرعة؟ إن الصعوبة ليست في الرجوع, ولكن في الآثار التي سيتركها في الرمل فيحفر مطبات عند تكرار المسافة بسرعة تصل إلى ستين ميلاً في الساعة. ومع هذا كان لا بد من العودة، إذا كانا يريدان الوصول على تلك السرعة. وقال جيرار لجوني:

– اسمع يا جوني.. سنعود بالشاحنة إلى بداية المنطقة الرملية، سأعود بظهري القهقري بسرعة بطيئة جدًا من غير أن أنظر إلى الخلف. ولهذا عليك أنت أن تترجل وتتولى إرشادي.

– لكن...

– لا تقلق.. عندما نصل إلى البداية سأتولى القيادة، وأصل إلى السرعة الواجبة. وحينما يصير كل شيء على ما يرام سأسلم إليك عجلة

القيادة. أموافق أنت؟

– سأحاول.

– كلا يا صاح.. إنها ليست مسألة محاولة، بل يجب بأي شكل أن تؤدي هذه المهمة ؟

وكانت لهجة جيرار كافية لإرهاب الروماني، وتبادل الاثنان النظرات في صمت، وعندئذ قال جيرار:

– لا تتعب نفسك.. فلو كان الطريق غير متعب إلى هذه الدرجة, لأتمم الرحلة بمفردي. ولن يؤنبني قلبي على تركك بعد الخيبة التي ألحقتها بنا.. ولكن الطريق شاق للغاية، فلا أستطيع أن أتمها بمفردي.

– ومن قال أنك ستتمها بمفردك؟

– إذن يجب أن تسير بسرعة معقولة ستين ميلاً على الأقل.. سأصل إلى هذه السرعة وبعد ذلك عليك أن تستمر.

– لا حاجة بك إلى التحدث معي بهذه اللهجة، فأنت تعلم تمام العلم أنني لست أجبن من سواي.. وأنت تعرفني منذ زمن طويل جدًا.

– وهو كذلك.. لا بأس، دع كل هذا الكلام لأنه لا فائدة منه؛ فليست المسألة الآن هي مدى بطولتك والبرهنة عليها.. المسألة كلها تتعلق بتمالك أعصابك لنصل بالشاحنة سالمة في وقت معقول.

– ولكني مذعور.. هذا ما يشل حركاتي.. كم مرة تريدني أن أقول لك هذا؟ الرعب شيء مثل المرض.. أنا مريض بالذعر.

وجف حلق جوني، وبدأ يتلعثم ويسعل ووجهه يرتجف.. فصاح جيرار.

– سواء كنت مريضًا أم لا، فالمسألة الليلة مسألة نجاح أو موت، وهنا ليس لدينا مستشفى ولا مؤسسة للترفيه كما في لاس بييدراس, ولولا أنني محتاج إليك لتركتك الآن ومضيت وحدي.

أمدرك أنت هذا؟

وغمغم جوني قائلا:

– نعم أدرك هذا.. لا شك عندي في ذلك.

– وأنا لم أتركك، فيجب أن تكون شكورًا ممتنًا، وأنا أحمل عنك معظم العبء، فلا أقل من أن تساعدني بعض الشيء، لأنني سأساعدك على أن تحصل على المال قدم المساواة معي.. فكر في الدافع الأساسي لهذه العملية، إنه ليس النيتروجلسرين.. بل هو المبلغ الضخم. فرصتنا الوحيدة للإفلات من هذه البلاد وتحقيق حياة آدمية معقولة.

– أعلم هذا ولكن مع ذلك.

– لا محل هنا لذلك ولكن.. لن أتركك تفسد علينا نحن الاثنين فرصتنا.. سأرغمك على الاستمرار.. سأخرجك من فزعك بفزع أكبر.

– اسكت.

– لقد تجاوزنا السن التي نلعب فيها لعبة النعامة التي تدف رأسها في الرمل, وهاك ما سنفعله الآن.. سأقود الشاحنة إلى أن أصل بها إلى

السرعة المطلوبة، ثم أسلم عجلة القيادة إليك وهي منطلقة. ولا تقل لي إن ذلك عسير.. إنه ممكن وضروري, ولا بد أن نفعله, وسأجلس إلى جوارك بعدها وأحظى بقليل من النوم. ليس أمامنا غير هذا، لأني لا أستطيع أن أقضي بقية حياتي موثقًا في هذه الشحنة من المتفرجات.

– نعم.. ولكن.

– كلا يا جوني.. وأرجو ألا ترغمني على العنف. فهذه هي الطريقة الوحيدة لإنجاز العمل، ولا يمكنني أن أدخل عليها أي تعديل.

ونزل جوني من القمرة، ومشي بجوار الشاحنة التي أخذت تسير إلى الخلف ببطء ولطف.. وكان في يده مصباح من مصابيح الجيش الأمريكي يضيء له مسافة طولها عشرون ياردة. بيد أن الشعاع لم يكن مركزًا، فكان يخلق له أشباحًا من كل حجر في الطريق، فزاد ذلك من توتر أعصابه وخيل إليه أن الليل حافل بالمخاطر والشرور، وأن قوى الشر قد تحالفت فيما بينهما جميعًا مع الشيطان الكامن في تلك الشحنة الجهنمية التي يحملانها.. إن كل شيء يتآمر عليه، فهو أضعف من احتمال الموقف. وزاد اعتقاده أن نهايته قد أزفت، وسيغدو ترابًا تذروه الرياح التي تهب الآن من حوله.

وبين الحين والحين، كان جيرار يحرك عجلة القيادة حركة خفيفة لتستقيم الشاحنة على الدرب، ولم تكن هناك متاعب والشاحنة سلسة القيادة، والعجلات الخلفية تمر فوق الخط الذي حفرته في الرمل وهي مقبلة، وكان هذا ضروريًا حتى لا يرتسم خط خاطئ يضلل جيرار وهو مسرع عند عودته.

وأخيرًا وصلا إلى بداية المنطقة الرملية، وحانت ساعة العمل الحقيقي، ولا شك أن المحكوم عليهم بالإعدام فعلاً كانوا يبدون مرحًا أكثر مما يبدو على جوني وهو يعود إلى مكانه بجوار جيرار، وما إن بدأ الفرنسي يضغط بقدمه على البنزين بعزيمة حتى امتلأ فم الروماني باللعاب، وخيل أنه سيقيئ من شدة الغثيان.

وها هما ذا الآن بدءا وعيناهما تحدقان إلى الأمام.. وتزايدت سرعة الشاحنة، وازدادت معها صعوبات التنفس لدى جوني. وعندما زادت السرعة على أربعين ميلاً, ظل جوني متوقف التنفس عشر ثوان, فاغر الفهم, يحملق في الطريق أمامه بذعر.. وسحابات من الغبار تثوب من تحت العجلات، ويبدو أنها تتراقص في ضوء المصابيح الأمامية ساخرة منه.

إن الآلة الآن في أقصى درجات قوتها، ولكن هناك عيبًا في مكان ما... وها هو ذا جيرار يضغط بقدمه على البنزين إلى النهاية من غير أن تزيد السرعة، فماذا حدث؟.

إن مؤشر السرعة وقف عند خمسة وأربعين ميلًا، ورفض أن يزيد على ذلك ذرة واحدة، وتبادل النظر مع جوني الذي انكمش في ركنه القصي.. وفجأة بدأ جوني يصيح بصوت مرتفع.. يصيح صياحًا غير مفهوم، لم يتمالك نفسه منه.. وجيرار لا يدري ماذا حدث للمحرك. لماذا ترفض السرعة أن تزيد هكذا؟

وبوميض مثل وميض الإلهام، خطر لجيرار الخاطر الصحيح، فصاح:

– القفل، القفل.

فقد كان من عادة الشركة أن تثبت في داخل المازج (الكربيراتور) قفلاً من الرصاص، يمنع السائقين من زيادة السرعة عن خمسة وأربعين ميلاً تفاديا للحوادث، ويبدو أن أوبرين ورجاله نسوا أن يرفعوا هذا القفل. وحينما أدرك جيرار هذه الحقيقة، كان قد بقي من القسم الرملي نحو أربعين ياردة، والقسم الذي يليه يجب أن يقطع بسرعة كبيرة أو بسرعة بطيئة جدًا.. أما سرعة الأميال الخمسة والأربعين، فهي أسوأ ما يكون لتلك المنطقة، ولذا يجب التوقف قبل الوصول إليها.

وبدأ جيرار يضغط على الفرامل بحزم، ولكن ليس بعنف.. وفيما هو يضغط بقدمه كان يحس داخل عظام ظهره بكتلة السائل المتفجر وهي تهتز داخل الأوعية الفولاذية.. كأن كل قطرة من هذا السائل الجهنمي تحز في جلده. وشعر بالدم ينتفض في عروقه, وبدق الطبول في أذنيه. وليس هذا من تأثير الفرامل وحدها، فلا بد أنه أيضًا من تأثير الخوف.

وبقيت اثنتا عشرة ياردة ومؤشر السرعة أقل من عشرين ميلاً بقليل... إن الخطوات التالية هي الحاسمة في الموقف كله، وهي أشد الجميع خطرًا.. فإن لم تتوقف الشاحنة بلطف كافٍ سيهتز السائل داخل أوعيته من دون شك.. واهتزاز من هذا النوع، هو كل ما يلزم لحدوث الانفجار. ومع هذا كله لا بد من التوقف قبل انتهاء القسم الرملي؛ فهل هذا مستطاع؟

وعند حافة القسم الرملي تمامًا، مد جيرار يده إلى فرامل اليد وجذبها إلى فوق بمقدار ثلاث عقد فقط، وأسرع ينتهز فرصة الإبطاء، ونقل

السرعة إلى الدرجة الأولى وهي أقل الدرجات. ولا يزال المؤشر يدل على أن السرعة خمسة عشر ميلاً حينما مست العجلات الأمامية بداية الأرض الصلدة, واهتز بسبب ذلك مقدم السيارة اهتزازًا شديدًا.. فلو لم يكن قد تم إصلاح جهاز تخفيف الارتجاج لطارات الشاحنة في الهواء. أما الآن فاهتزاز مقدم الشاحنة لم ينتقل إلى جزئها الخلفي، واعتدلت العجلات الخلفية أيضًا على الطريق بهدوء نسبي، وقد هبط المؤشر إلى عشرة أميال, والآن أمست السيجارة أهم شيء في الوجود. وتوقفت الشاحنة بلطف، ثم هبط الاثنان من القمرة، وقد لفهما الصمت.. وبعد أن انتهيا من تدخين السجائر، قال جيرار:

– يجب أن نعيد تزويد جهاز منع الارتجاج بقليل من الماء مع إضافة شيء من الشحم إلى اللوالب، ثم تعود القهقري إلى بداية القسم الرملي لنبدأ من جديد.

وصاح جوني مذعورًا:

– كلا.. كلا.

وكانت صرخته أشبه بصرخة الحيوان الجريح، أو بصرخة امرأة في المخاض.. فقبض جيرار على عنقه، وأخذ يهزه هزًا قويًا، وجوني يجار بالرفض.

– اسمع أيها الجبان الخائر الركبتين.. إذا لم تكف عن هذا العبث سأقتلك, سأحملك على ظهري وأربطك في إحدى أواني النيتروجلسرين.. ثم أقود الشاحنة بمفردي. ولما كنت متعبًا إلى درجة الإعياء، فلن يمضي

وقت طويل حتى تنفجر الشاحنة بكلينا.. هل أنت خائف؟ وما ظنك بي أنا بحق السماء؟ أنا أيضًا خائف, ولكن من قلة الحياة أن يصل الخوف بإنسان حيث أوصلك أنت.. إن العودة شيء لا مفر منه.

ومرة أخرى عادت الشاحنة إلى نقطة الابتداء، وجوني يسير على قدميه بالمصباح يلوح به، وكأنه شماس يلوح بالمبخرة أمام تابوت ميت، وقد ألح هذا التشبيه على ذهن جيرار وهو يتولى القيادة إلى الخلف، فلم يستطع مقالبه الضحك، ثم أخذ يصفر بشفتيه لحنًا جنائزيًا. وعند بداية القسم الرملي، استطاع جيرار أن يستخدم مفكًا لانتزاع القفل من المازج.. ثم قال وهو يلقي به باشمئزاز:

– الآن سأعيد الكرة، وأصل إلى السرعة الحقيقية, وعندما تصير الشاحنة على الجزء الصلد من الطريق بعد القسم الرملي بالسرعة المطلوبة، سأعطيك عجلة القيادة لتتولى الأمر إلى أن نصل إلى قرية لوس نوتوموس.. فالطريق بقربها مصنوع من الإسمنت، ونستطيع هناك أن نقلل السرعة.. وليس هناك ما تخشاه، فلا حفر, ولا كثبان رملية, ولا وديان.. والمهم ألا تقل السرعة بأي حال عن خمسين ميلاً.

وفعلاً أثبتت التجربة أن انتزاع القفل من المازج قضى على جميع الصعوبات، ووصل جيرار بالشاحنة إلى السرعة المطلوبة؛ وهي أكثر من خمسين ميلاً. وهكذا تسنى للشاحنة أن تنتقل إلى القسم الصخري بغير اهتزاز كأنها تنزلق على الجليد. وقد أرهق هذا النجاح جيرار، أو بالأصح زاد إحساسه بالإرهاق حتى لقد شعر بالتعب يسري في ذراعيه وكتفيه،

وبدأت أجفانه تتراخى. ولكن الهواء الذي كان يهب قويًا بسبب السرعة الشديدة صار يضرب وجهه ويعمل على إيقاظه، ولكن بدون جدوى.. إن النوم يفرض نفسه عليه فلا مفر له من الاستسلام له.

– جوني.. جوني

– ماذا تريد؟

– حل دورك الآن.

وحدث ما توقعه جيرار.. فلم يظهر جوني تحمسًا وسأله:

– ولكن كيف نتبادل المكان والشاحنة منطلقة؟

– تمد يدك من وراء ناقل السرعة، وتضع طرف إبهامك على البنزين، بينما أسيطر أنا على بقية الأجزاء.. مفهوم؟

– لحظة واحدة.. يجب أن أعيد هذا في ذهني لأفهمه.

– اسمع.. قم على المقعد وتحرك لتلتصق بي من غير أن تجلس تمامًا. لا تشغل نفسك بعجلة القيادة، سأظل ممسكًا بها ولن أسلمها لك إلا بعد أن تجلس في موضعي.. ستضع إبهام قدمك اليمنى فقط على البنزين، وأنت نصف واقف ملتصقًا بي. لا تخف فالشاحنة في اتجاه مستقيم تمامًا، وسأمرق بجسمي من تحتك وأنا ممسك بعجلة القيادة، وأُخلي لك مكاني لتجلس فيه وقدمك على البنزين باستمرار ثم تتسلم مني العجلة.

وببطء شديد تم هذا التغيير.. وناقل السرعة يشير إلى ستين ميلاً.

– ها هي ذي الشاحنة قد أصبحت بين يديك كلها.. والآن لا

تنسى أنك إذا هبطت بالسرعة عن هذا المعدل انفجرت بنا الحمولة.

وهز جوني رأسه، وقد استرد بعض ثقته بنفسه.. ولكن الخوف ظل يداعب ذهنه ومخيلته كلما نظر إلى الظلمات المطبقة من حوله. والمصيبة أنه لا يستطيع أن يضمن تماسك أعصابه، وهو وحيد وسط هذا الظلام الموحش، وجيرار مستسلم للنوم.. إن الخوف المكبوت يضغط على أحشائه، فتكاد معدته تقفز إلى فمه.. وهو يغالب ذلك الإحساس، ويحاول أن يركز انتباهه في عجلة القيادة. فهو حتى هذه اللحظة كان أشبه بالمسافر، أما الآن فهو سائق بمعنى الكلمة.

وتراجع بظهره ليستريح في جلسته، وأخذ يجرب أوضاعًا كثيرة ليديه على العجلة السوداء اللون، ثم استقر على الإمساك بها في حزم من نصفها الأسفل، ووجد من حقه الآن أن يأمر وينهي.

– سيجارة.

وأشعل له جيرار سيجارة، وقدمها إليه، فأخذ منها ثلاثة أنفاس طويلة, ثم ألقى بها من النافذة، فقد وجد للطباق طعما مرًا لم يعهده فيه من قبل.

وبعد قليل التفت نحو جيرار وتنحنح.. فقد كان لديه شيء يصعب عليه أن يقوله، ومع هذا يحس برغبته في الإفضاء به.

– جيرار.

– ماذا؟

– شكرًا لك.

– شكرًا على ماذا؟

– على أنك لم تتركني في ذلك الخندق، بعد أن تركتك أنا تجتاز تلك المنحنيات الثلاثة بمفردك. أنت فتى شهم يا جيرار.

– بحق السماء دعك من هذا.

– أجل أنت فتى شهم.. ولكنك سوف ترى، سأساعدك من الآن فصاعدًا.

– وهو كذلك.

وأخلد جيرار في ركنه للنعاس، وشرع جوني يهمهم بأغنية من أغنيات طفولته.

"سنتان قضيتهما مسافرًا في بلاد الله.

وعدت غانمًا وفي جيبي اثني عشر دولارًا ذهبيًا...".

وهبت دوامات الغبار إلى أن لمح وهجًا أحمر غير واضح عند خط الأفق..

فراح يفرك عينيه بأصابعه، ويعيد النظر, ولكن بغير جدوى.

– لا بد أنه الضوء الخلفي لشاحنة لويجي، فإما أنه يسير ببطء شديد جدًا.. أو أنه متوقف تمامًا عن السير.

أما عينا جوني، فكانتا شاخصتين إلى الأمام، وهو يبذل غاية جهده

لاختراق أسوار الظلام تنقيبًا عن جسم صلب، قد يكون كامنًا هناك فيرتطمان به إن لم يلزما جانب الحذر كما ينبغي. ونتيجة لهذا التوتر، بدر منه من غير وعي شيء خطير.. فقد تراخت قدمه عن البنزين، فنقصت السرعة نقصًا سريعًا. وهذا هو بالذات ما كان ينبغي ألا يحدث.. وعلى الفور مد جيرار قدمه، وداس قدم جوني بشدة فوق رافعة البنزين، وصرخ في وجهه:

– تمالك نفسك.

وأظهر جوني تخاذلاً.. فعاد جيرار يصيح به:

– أترك لي عجلة القيادة.

وفي الحال أسرع جوني يخلي له مكانه بهمة أكثر جدًا من همته حين تولى القيادة. وتم عملية التبادل، ولم يزل جيرار نصف نائم، حتى أنه أخرج رأسه من النافذة ليضرب الهواء صفحة وجهه. ولما أفاق تمامًا، أخذ يفكر في المشكلة التي تواجههما.. إنها أشبه بلعبة من لعب الأطفال، إذا أنت لم تستطع تخمين الحل الصحيح خسرت الرهان. وكل الفرق بين هذه اللعبة ولعبة الأطفال أن الرهان الذي تدور عليه لعبة التخمين هو الحياة نفسها.

ما أقبح الظلام.. وما أشد قدرته على التضليل والخداع. إن النور الأحمر يبدو وكأنه يقترب كثيرًا, ولكن ليس من السهل الحكم على الأبعاد في مثل هذه الظروف، وفي قلب هذا السهل المترامي المتشابه المعالم.. ولذا سأل جوني:

– أتدري يا جوني أين نحن بالضبط؟

لقد تجاوزنا المضخة رقم ٧ منذ خمس دقائق أو أكثر قليلًا؛ وهذه المضخات أشبه بسيمافور السكة الحديدية.. وتشاهد على طول خط الأنابيب، فمهمتها حفظ درجة الضغط في الأنابيب التي تنقل الزيت من أبعد الآبار إلى مرفأ التفريغ في لاس بييدراس، إن الشيء الوحيد المهم هو المحافظة على السير بسرعة ستين ميلًا في الساعة. فبهذه السرعة يجب الاستمرار في السير إلى أن يصلا إلى العقبة التي يخفيها الظلام أمامهما.. وعندئذ يجب النظر في حل المشكلة.

والصعوبة في اللحظة الراهنة منحصرة في أن الطريق أخذ في الضيق بشكل يتعذر معه مرور شاحنتين في وقت واحد من غير أن تحتك إحداهما بالأخرى.

ومرت دقيقتان أخريان، وازداد وضوح الوهج الأحمر أمام عيونهما. وكان جوني قد ألصق وجهه تقريبًا بالزجاج الأمامي.. أما جيرار فكان يطل من خارج النافذة، ونظراتهما تخترق الليل وتحاول الوصول إلى السر أو الأسرار التي تكتنف ذلك الضوء الأحمر.. وفجأة صاح جوني:

– لقد انطفأت مصابيحنا الأمامية.

– لا حاجة بك إلى الصراخ هكذا، فأنا الذي أطفأتها.. فأنت ترى بدونهما في هذا الظلام معالم الضوء الأحمر بصورة أوضح.

ومع إطفاء المصابيح الأمامية، برزت أهمية النجوم الكثيرة التي تحفل بها سماء المنطقة الاستوائية. وكان في استطاعة جيرار أن يتبع خط الطريق بسهولة لأن ذلك الخط كان يسير على استقامته تمامًا.. ولذا سمح لنفسه

أن يغلق عينيه برهة. ولما فتحهما كان تأثير ضوء المصابيح الأمامية قد ذهب تمامًا, واستطاع أن يرى لأول وهلة حقيقة الضوء الأحمر، فإذا به مجموعة من الصمامات الحمراء معلقة في الهواء عند نهاية النظر.. وأضاء جيرار المصابيح الأمامية مرة أخرى وهو يقول:

– لدينا وقت كاف للتفكير.. خمس دقائق على الأقل.. إنها الإشارات الحمراء التي تزين سقف قمرة شاحنة لويجي.. لقد صاحبهما النحس، فلو تقدما نصف ساعة لاستطاعا الوصول إلى لوس تتومس قبلنا.

– وماذا أنت عازم أن تصنع؟

– سأحاول تجاوزهما، فبالسرعة التي يسيران بها الآن يستطيعان الوقوف في أية لحظة. وفي وسعهما أن يلزمان الجانب الأيمن تمامًا ليفسحا لنا الطريق.

– إنهما كي يفسحا لنا الطريق سيضطران للدخول في الرمال قليلًا..

– هذا ما أتعشم أن يعقلاه حقًا.

وأخذ جيرار يستخدم آلة التنبيه، فانطلق صفيرها في سكون الليل. وبعد عدة محاولات استقر نغم آلة التنبيه على صورة محددة من الأصوات.. قصير ثم طويل، ثم قصير ثم طويل، وهكذا. وهي الإشارة المتفق عليها بين سائقي الشاحنات فوق هذه الطرق، ومعناها باللغة الكلامية:

– انتبه.. انتبه.. أفسح الطريق, لابد لي أن أمر.

وأعقب ذلك بصوت حاد طويل يكفي لتخويفهما إن لم يكونا قد فهما مغزى الإشارة السابقة. وفجأة هتف جوني:

– أسكت هذه الزمارة بحق الشيطان وانصت.

وفي هذه المرة جاء دور الأذن كي تخترق الظلام والصمت، كما كانت العين تخترق الظلام والتراب منذ قليل. وكان صوت الرياح يعكر عليهما الإنصات.. وها هو ذا الضوء الأحمر يبدو على مسافة أقل من خمسمائة ياردة. وهذه المسافة تقل بسرعة، ومع ذلك لم يسمعا أي رد على إشارتهما. ووضع جيرار أصبعه على آلة التنبيه ليرسل إشارة جديدة.. وإذا جوني يضع يده على ذراعه، ويقول له بصوت خافت من شدة التركيز والإنصات:

– انتظر.. أنصت.. أعتقد.

وبالفعل كان هناك صوت منتظم ولكنه متحشرج.. هذا هو لوجي يرسل إشارة ردًا على إشارتهما. ولكن لماذا بحق الشيطان لم يفسح الطريق، إن المسافة التي تفصل بينهما الآن لا تزيد على مائة ياردة.

وسأل جوني صديقه جيرار عن ترجمة الإشارة لأنه كان يجهل طريقة مورس.

– إنه يقول: انتظر.. كأنه يدعونا إلى تلاوة صلاتنا الأخيرة ثم القفز من الشاحنة للفرار بأرواحنا..

وابيض وجه جوني، ووضع كفيه على صدغيه، وفتح فمه كأنه قد نذر

أن يموت وهو يصرخ. وازدرد جيرار ريقه.. فالضوء الأحمر ينعكس الآن على الزجاج الأمامي تمامًا, وآلة التنبيه ترسل عويلًا حادًا تحت ضغطات جيرار العنيفة، وجيرار نفسه يريد أن يغمض عينيه ولكنه لا يستطيع. أما جوني فأغمض عينيه فعلًا.. إنه الطراز الذي يستسلم، أما جيرار فلا يستسلم مطلقًا، بل هو من ذلك الطراز من الناس الذي يضطر الجلاد إلى بذل كل قوته في جره إلى المقصلة، أو هو الرجل الذي يتشاحن مع الحانوتي على تكاليف الجنازة وهو على فراش الموت في لحظاته الأخيرة.

إن شاحنة لويجي الآن على بعد ثلاثين ياردة..

وفي هذه اللحظة اليائسة التي أحس فيها السائقان أنه لم يعد أمامهما في الحياة أكثر من ثوان معدودات، ثارت سحابة من الغبار من تحت عجلات الشاحنة الأمامية حتى كادت تعمي عيني جيرار.. فأخذ يسب, ورفع قدمه فورًا عن البنزين وجذب فرملة اليد إلى منتصفها، ثم لمس فرملة القدم بكعب حذائه.. ولكن شيئًا غريبًا جدًا حدث. فهذا النور الأحمر الذي أمامهما كف عن الاقتراب منهما بسرعة وأخذ يبتعد.

أجل.. إن لوجي قد زاد سرعة الشاحنة زيادة كبيرة. ولهذا ثار الغبار من خلفه، وجعل الزميلين يسعلان سعالًا حادًا. ولكن هذا السعال لم يشغل جيرار عن الانتباه التام لحالة الشاحنة وقد كادت تتوقف.. إنه يحل فرملة اليد ويعود للضغط على البنزين بخفة، ومع هذا تزداد نعومة السيارة في الانطلاق ولا تعاني من تغيير السرعة المفاجئ.

ومن خلال سحابة التراب، استطاع أن يتبين وجه الطريق بصعوبة،

وأن يرى لمعان الأسفلت.. لقد انتهى السطح الرملي المتغضن، وبدأ الطريق الصلد أثناء تلك الأزمة, لقد انتهى ذلك الدرب الوعر، وبدأ طريق كأنه البساط الممدود. وعن بعد رأى جيرار شاحنة لويجي تمر بمضخة في الظلام، فأدرك أن جوني غرر به؛ فلا يمكن أن تكون المضخة الماضية رقم ٧، بل حتمًا رقم ٦، ومعنى هذا أن جوني لا يُعتمد عليه حتى في إعطاء بيانات صحيحة دقيقة.

وواجهه جيرار بهذا.. فارتسم على وجه جوني الألم ولم يتكلم؛ فلم يجد جيرار جدوى في الاهتمام بمسألة انقضى أمرها، واستمر يسير بسرعة متوسطة ثم بطيئة نحو القرية. وكانت شوارعها خالية، ولكن من حين لآخر كانت تبدو الأبواب المفتوحة تكشف لهما عن أسرة راكعة تصلي، وهذا دليل على أن سكان القرية قد رصدوا خارجها من ينبههم إلى اقتراب شاحنات الموت،ولم يكن الفاصل الآن بين الشاحنتين يزيد على بضع ياردات. فلما وصلتا إلى ميدان السوق، امتدت من الشاحنة الأولى يد تلوح في الضوء الأحمر.. لا شك أن يد لوجي أو بمبا, والتلويح معناه الرغبة في الوقوف، فانحرف جيرار إلى جانب الطريق ووقف. أما الشاحنة الأولى، فدخلت ميدان السوق نفسه ووقفت هناك.

– أهلًا بك يا لوجي.. أهلًا بك يا بمبا.

ورد الإيطالي على تحية جيرار بقوله:

– ماذا حدث لعقليكما بحق الشيطان؟ ألم تريا المنديل الأبيض الذي علقناه لكما في المضخة رقم ٦ تنبيهًا لكما على الإبطاء؟ ما فائدة وجود

اثنين في الشاحنة إذا كان الاثنان يستسلما للنعاس.

– كنت أنا النائم، أما جوني فكان يتولى القيادة.

– ألم تر المنديل الأبيض يا جوني؟

– وكيف لي أن أعلم أن معناه الإبطاء؟

– إن أية خرقة بيضاء معناه وجود خطر.. هذا شيء يعرفه جميع السائقين على هذه الطرق ولهذا يحرص كل سائق على حمل منديل أبيض أو جريدة. وإن لم يوجد معه غير قميصه مزقه وعلق قطعة منه تحذيرًا لمن عساه يأتي خلفه.

– لم أكن أعلم هذا، فأنا لم أقد السيارات إلا في أوروبا.. ولكن ما خطبكما على كل حال؟

– لقد كانت هناك متاعب في آلات السيارة فازدادت سخونتها، واضطررنا للتوقف قليلًا إلى أن بردت.. وأصلح بمبا العطل بنفسه. والآن يجب أن نأكل شيئًا ونحن في هذا المكان.

وكانت هناك بضع ساعات باقية من الليل الإستوائي الطويل.

وذهب السائقون الأربعة إلى حانة مغلقة؛ فأيقظوا صاحبها ثم جلسوا إلى طعام من الأطعمة الوطنية المصنوعة من الذرة، وأقبلوا عليه يلتهمونه بشغف. ولكنهم ما إن شرعوا في تناوله صامتين لشدة جوعهم وتعبهم، حتى ظهر رجل عجوز في فرجة الباب. وكان العجوز يرتعد، وصوته مرتجف متحشرج، وهو يقول:

اذهبوا من هنا.. اخرجوا من هنا.. وخذوا متفجراتكم الجهنمية معكم, أنا عمدة هذه القرية ونحن لا نريد أن تنسف قريتنا لنحافظ على بترول الأمريكان.

وقال له لوجي بهدوء:

– هون عليك يا عم.. لن يحدث انفجار.. اجلس واشرب معنا كأسًا من الخمر، بعد قليل سننهض ونستأنف طريقنا.

وبقى العجوز في مكانه ولم يتحرك، وكانت نظراته حائرة، والغضب الشديد يزاحم الخوف المرتسم على ملامحه.. واستطرد يصيح:

– اخرجوا من هنا.. اخرجوا من هنا.

وقال بما يهدئه:

– اجلس يا رجل واشرب معنا كأسًا.. نحن لسنا أمريكيين، أنا شخصيًا أسباني، وهذا الرجل طلياني، أما هذا ففرنسي، وأما ذاك فروماني.. أما أنت فمن أهالي هذا الإقليم، ويبدو عليك أنك تكره جميع صنوف الأجانب.. أليس كذلك؟

وتدخل جوني في الحديث، وسأله:

– وماذا فعل الأمريكان بك أيها العمدة؟

فأجابه العجوز وقد اطمأن قليلًا:

– صنعوا بي الكثير.. جاءوا إلى هنا ليشتروا البترول.

– وهل هذا يضرك في شيء؟

– طبعًا يضرني.. فهم يشترون البترول من الحكومة, فتأخذ منهم المال وتحتفظ به لنفسها, ولم تعد تهتم بمصالحنا وأحوالنا.. كانت الحكومة في الماضي تهتم بإصلاح الحال لتستطيع الحصول من البلد وأهلها على أموال بصورة ضرائب.. أما الآن فلا حاجة بها إلى أموالنا القليلة، ولذلك تتركنا لفقرنا.. والأموال الأمريكية زادت غلاء الأسعار من غير أن تزيد دخلنا.. والحكومة تجمع رجالنا لبناء الطرق كالعبيد، ثم يستخدم الأمريكان هذه الطرق لشاحناتهم.. حتى إذا مرت عربة يجرها حمار من عرباتنا على إحدى هذه الطرق حصلوا منها رسومًا.. والحكومة تبني بمساعدة الأمريكان مدارس لتعليم أطفالنا القراءة بسرعة والكتابة أيضًا.

– وهل تعليم القراءة للأطفال شيء ضار يا عم؟

– طبعًا يعلمون أطفالنا القراءة كي يقرأوا صحفهم, ويطيعوا أوامرهم, ويعطوهم أصواتهم في الانتخابات ويعملوا لهم. وفي المدن الكبيرة يغدق هؤلاء الأمريكان الأموال على النساء، وبعد هذا تفسد النساء وتنفق الأموال في شراء الأثواب, وأحمر الشفاه, وحقائب اليد المصنوعة من البلاستيك. فكيف بعد هذا تريد منا أن نحب الأمريكان؟!

– ولكنهم يا عم ينشئون المستشفيات لعلاجكم، فقد كان الجدري والملاريا يفتكان بكم قبل مجيء الأمريكان إلى بلادكم.

– ربما كان هذا صحيحًا بالنسبة للملاريا.. أما الأمراض الأخرى فكنا قد تعودناها؛ فجاءت أدوية الأمريكان وحقنهم وزادت شعورنا

بالمرض والضعف. ثم أضافت إلى قائمة أمراضنا القديمة علة جديدة تنتشر الآن في كل مكان بسرعة مذهلة.. وهذا المرض الجديد المستورد اسمه الزهري.

وخفض الرجل بعد ذلك صوته حتى قارب الهمس، واستطرد يقول:

– ليس هذا كل شيء.. هناك أيضًا آفة أشد من هذا.. أشد من الزهري, ومن الفقر, ومن إفساد النساء.

وانتهز بمبا الفرصة، وقدم إلى الرجل كأسًا فتناولها وشربها جرعة واحدة في صمت، كأنه يشرب كوب ماء. واستأنف كلامه:

– إنهم يأخذون دمنا.. فالحروب التي خاضوها في كل مكان لم تترك عندهم من الدم ما يكفيهم. أما هنا في جواتيمالا، فلم تنشب حرب منذ مائة وخمسين سنة. ولهذا كلما دخل أحد رجالنا مستشفى أمريكية أخذوا منه دمًا.. أخذوا نصف دمه على الأقل, ولا يعنيهم بعد هذا أن يموت الرجل.

وانتهت الوجبة ونهض السائقين الأربعة متجهين إلى الشاحنتين.

الفصل الثالث عشر

اعتقد السائقون الأربعة أن مشكلتهم مع العمدة العجوز الغاضب قد انتهت، ومشوا إلى الشاحنتين في هدوء، وقد رفع الطعام والشراب معنوياتهم. وبقى ترتيب المرور كما كان.. لويجي وبمبا في الشاحنة الأولى. وفي الشاحنة الثانية على مسافة كافية للأمان جيرار وجوني.

ولكن العمدة العجوز اقتفى أثرهم، وصاح مستنكرًا:

– هل تنوون اختراق القرية كلها ؟ هل ستمرون وسط البيوت المأهولة بهذه الشحنة الجهنمية؟ إنكم جميعًا أجانب.. كلكم صنف واحد.. مستعدون أن تموتوا في سبيل الحصول على مبلغ من المال, ولكنكم تقتلوننا معكم ولا نحصل على شيء.

وفي هذه اللحظة أقبل قسيس القرية، وانضم إلى العمدة العجوز، وأخذ يدلي بكلمته أيضًا:

– ليس لكم أدنى حق في أن تقدموا على هذا العمل.. إن سكان هذه القرية عددهم سبعمائة نسمة؛ بينهم النساء, والشيوخ, والأطفال الأبرياء.. وأنا أناشدكم وأستحلفكم بأرواحكم الأبدية وضمائركم.

وقاطعه بمبا قائلًا بفظاظة:

– هذا الرجل سيصدر ضدنا قرار الحرمان بعد دقيقة واحدة، وهو

يحسبنا سنكترث لتخريفاته. اسمع يا أبانا.. إننا لم ننفجر بعد.. أليس كذلك، ثم ليس من الأكيد أيضًا أننا سوف ننفجر حتمًا.. فبحق السماء كف عن تدخلك، و دعنا نمضي في طريقنا.

فقال القسيس الوقور:

– ولكن ليس لكم الحق في المرور بين بيوت القرية، لأن هناك طريقًا جانبيًا أعدته الشركة خصيصًا لمروركم من خارج القرية، فإذا لم تمروا من هذا الطريق شكوتكم إلى إدارة الشركة.

وهز بمبا كتفيه، وأجابه قائلًا:

– هذا لا يخيفنا يا أبانا.. فإننا إن انفجرت بنا الشحنة، فلن يبقى في القرية أحد كي يرفع الشكوى للشركة، وإذا مررنا بسلام ولم ننفجر، فلك أن تصنع ما تشاء بشكواك وترفعها لمن تشاء؛ لأن الشركة لن تعيرك أذنًا صاغية، وكل ما يهمهما أن ننجح في مهمتنا.

ولكن لويجي إيطالي.. ولهذا لا يشعر بالراحة النفسية إذا اختصمه قسيس، فسلطان الكهنة في مهد البابوية سلطان عظيم.. ولذلك قال:

– ما هذا الذي تقوله يا أبي عن الطريق الجانبي؟ ما شكله؟

فقال القسيس بلهفة:

– طريق جيد جدًا يا سنيور.. طريق ممتاز، لقد أرسلوا بالأمس فقط رجالًا ومعهم آلات بولدوزر لتمهيده على وجه السرعة, وستجدونه أحسن بكثير من شوارع القرية الضيقة العتيقة.

وعندئذ قال لويجي لأصحابه:

– لا ضرر من إلقاء نظرة على هذا الطريق.. وإذا وجدناه صالحًا فلا بأس علينا من السير فيه، إذ ليس هناك ما يمنعنا من ذلك، وقد يكون أوفق لنا وأنسب للسير بسرعة.

وكان الطريق الفرعي المذكور يتفرع على بعد نحو عشرين ياردة من بيوت المدينة. ويبدو من أول نظرة ممهد أحسن تمهيد. وعلى ضوء المصابيح الكاشفة تراءى لهم أن هذا الطريق واسع ويدور دورة كبيرة حول مجموعة البيوت. وعند بدايته سهم أحمر، وغير مكتوب عليه أي تحذير لتخفيف السرعة.

وسأل لوجي القسيس على سبيل التأكد:

– أتقول متى جاء الرجال لتمهيده يا أبي؟

– أمس صباحًا يا بني.. وظلوا يعملون هناك طول النهار بلا توقف. وقد علمت منهم أن مهندس النقل بالشركة هو الذي أرسلهم من الوحدة رقم (٥)، ومنهم أيضًا عرفنا بنبأ قدومكم الليلة.

وأخذ الرجال يفكرون.. إن أحدًا لم يتحدث إليهم بشأن هذا الطريق الجانبي. وهم يعرفون شيئًا أيضًا عن مقدار طوله، ولكن الراجح أنه لا يزيد عن بضعة أميال، وأن سطحه يبدو ناعمًا كمائدة البلياردو.

واستأنف القسيس محاولاته لإقناعهم.. أما العمدة فقد اختفى عن الأنظار عندما بدأ القسيس يتحدث في مسألة الطريق الجانبي. ولاشك أنه

فضّل أن يترك القضية كلها لفصاحة القسيس.. فالقسيس متحدث محترف على كل حال. وهذا القسيس بالذات يبدو عليه الوقار، وكلامه وقع وهيبة، ولنظراته على الخصوص وميض هادئ يوحي بالثقة والحنان والأسى.

واستطرد رجل الله كلامه قائلًا:

– لست عن نفسي أتحدث.. ولكن من أجل سكان القرية المساكين أتوجه إليكم بالرجاء، فأنا كما ترون رجل متقدم في السن، ولست أخاف الموت. ولكن من أجل هؤلاء المساكين، ومن أجل بيوتهم، ومن أجل سلامتهم. وأنا أتوسل إليكم الآن أن تبقوا على هذه الأرواح البريئة، فأنتم رجال، وأنتم تعلمون سلفًا خطورة ما أقدمتم عليه حين قبلتم الاضطلاع بهذه المهمة. أما هؤلاء الأبرياء، فلم يكن لهم رأي في الموضوع.. فأتوسل إليكم أن تسلكوا هذا الطريق الفرعي المخصص لكم، وأن تدعوني أذهب إلى كنيستي لأنصرف إلى صلواتي ودعواتي التي ستكون في هذه المرة موجهة لطلب السلامة لكم أنتم.

فقال بمبا بفظاظة:

– تستطيع أن تخرجني من دعواتك، فقد قتلت بيدي عددًا كبيرًا من الكهنة في الحرب الأسبانية.. ولا حاجة بي إلى صلوات.

وأثار ذلك حنق لويجي الإيطالي التقي، فراح يسبه بالإيطالية، ثم قال:

– أغلق فمك.. أما أنت يا أبي, فاعلم أننا سنسلك إكرامًا لك هذا

الطريق الجانبي، كن مطمئنًا.

ولم يكن أحد منهم بطبيعة الحال، قد أعطى لويجي تفويضًا للكلام باسمه. ومع هذا لم يعارضه أحد من إخوانه. وقال القسيس:

– شكرًا يا بني.. إني أشكرك باسم رعيتي، وسوف يجازيك الله الذي في السماء.. أما أنا فسأبارك رحيلكم، وأصلي من أجل سلامتكم.. وسترى يا بني حتى ولو لم تكن مؤمنًا أن الحظ السعيد سيحالفكم بسبب صلواتي.

وأخذت الشاحنتان ترجعان القهقري إلى بداية الطريق الخارجي، وأخذ لويجي يقود الشاحنة الأمامية.. وبعد أن تحركت الشاحنة بقليل، أخرج رأسه من النافذة وقال للقسيس:

– وداعًا يا أبي.. وامنحنا بركاتك لأننا سنكون بحاجة إليها؛ فتراجع رجل الله إلى الوراء خطوة أو خطوتين، وبدا في أضواء المصابيح الحمراء فارع الطول، وهو يرفع ذراعيه إلى السماء يتلو باللاتينية صلاة البركة.. ثم خفض يده اليمنى قليلًا، وهو يرسم بها في الهواء علامة الصليب.

وأصغى الرجال الأربعة في صمت.. وتأثروا جميعًا بالموقف فيما عدا بمبا الأسباني الذي كان يطلق من بين أسنانه كلمات التجديف والكفر، وعندما انتهى القسيس من الصلاة، قال لويجي وهو يضغط على البنزين بقدمه:

– آمين.

ثم اختفت شاحنته في جوف الظلام.. وقال جيرار لزميله الروماني جوني:

– فلندخل بشاحنتنا إلى بداية الطريق، ثم نتركها ونذهب إلى الحانة لنظفر بمزيد من الراحة، أو ننام برهة.. فأنا واثق أن أبانا هذا لن يفوته إيقاظنا بعد مضي ساعة من الزمن. اذهب أنت بالشاحنة إلى بداية الطريق يا جوني ثم تعالى..

– هل كل ما تفكر فيه هو النوم؟

ثم ركب الشاحنة، وترك جيرار واقفًا وحده مع القسيس. وعندئذ قال الكاهن العجوز، وفي صوته نبرة قلق حادة:

– ألست ذاهبًا مع أصحابك؟

– كلا.. فنحن نترك فترة أمان بين الشاحنتين تقدر بمسيرة ساعة على الأقل.

– ولكن.

وبدأ القسيس يوشك أن يقول شيئًا، ثم عدل عن رأيه. ولكنه كان بادي القلق والاضطراب بعد ذلك. وبقى هكذا برهة، ثم أدار ظهره وانصرف. فلم يلق جيرار إلى ذلك بالًا.

والله أعلم أي إلهام، أو أي رغبة في الإتقان، فجعلت جوني يبذل جهدًا كبيرًا كي يقف بالشاحنة على الجانب تمامًا من بداية الطريق، بحيث تكون المصابيح الحمراء الخلفية ملامسة تقريبًا للعمود الخشبي الذي يحمل

السهم الأحمر.. ثم نزل من الشاحنة وهو يتصبب عرقًا، وقد استغرق منه ذلك العمل نحو دقيقتين.

وفي اللحظة التي قفز فيها جوني من الشاحنة، واستعد الرجلان لدخول القرية على الأقدام، وقفا مبهوتين يحدقان أمامهما.. فالوهج الأحمر الذي ينبعث من المصباح الخلفي لشاحنة لويجي كان منذ دقيقتين قد اختفى في الظلام.. أما الآن فها هما ذا يريانه بوضوح وهو يزداد اقترابًا منهما، ويزداد حجمه بالتالي.. ومعنى ذلك أن الشاحنة قادمة.. ووقف الاثنان ينتظران وصولها.. ثم لمح جيرار هنديًا عابرًا في الطريق ينحني ويلتقط من وسط الرمال عمودًا ملقى هناك مثبتة فيه لافتة ذات حروف سوداء. وقبل أن تقف الشاحنة تمامًا، قفز منها بمبا ووجهه شاحب من شدة الغضب.

– أين هذا القسيس؟

– لماذا؟ ماذا حدث؟ ماذا صنع؟

– أنظر إلى هذا الشيء.

ثم انتزع اللافتة من يد الهندي، ووضعها تحت أنف جيرار، فقرأ ما يأتي:

تحذير:

السير ببطء جدًا.

الطريق بعد قليل غير ممهد.

– هذا هو ما صنعه هذا الرجل.. لقد نزع اللافتة من بداية الطريق الجانبي، لأنه كان يعلم أننا إذا رأينا هذه اللافتة فسوف نصر على اختراق قريته ولا نبالي بكلامه.. أين ذهب؟ لا بد أن ألحقه بزملائه الذين قتلتهم في الحرب الأسبانية قبل أن أبارح هذا المكان.

وكان بعض رجال القرية قد خرجوا عندما ارتفع صوت بمبا، ومن بينهم العمدة الذي لم يظهر عليه استنكار لما يسمع.. فجذبه جيرار من ذراعه وصاح به:

– وأنت أيضًا مشترك في هذا الجرم.. أنت أيضًا كنت تحاول أن تمنعنا من اختراق قريتك اللعينة القذرة.

فقال العمدة العجوز بحزن:

– لقد كنت أحاول حملكم على ترك هذه العملية،ولكني لم أطلب منكم السير في هذا الطريق الجانبي.

– سيان.. إنك على الأقل نزعت تلك اللافتة.

– كلا.. نحن لم نصنع هذا.. الأب هو الذي نزعها.

– وأنت أيضًا شريكه في هذا أيها الخنزير العجوز.

وكان جيرار يهزه بعنف بقبضة يده، ولكن نظرات العمدة لم تضطرب.. واقترب الأهالي وحاولوا حمايته بالكلام، ولكن أحدًا منهم لم يجسر على مد يده، وأيد أحدهم أقواله:

– إن الأب هو الذي فعل هذا بيده.. قال إنكم إذا قرأتموها

ستخترقون القرية.

وقال آخر بحماسة:

– كنا نريد أن نخرج كلنا وننام هذه الليلة في الحقول.. ولكن الأب لم يدعنا نفعل هذا، فإن للكنيسة ومسكنه الخاص يطلان على الشارع الرئيسي الذي ستمرون به.

وقال ثالث:

– وهددنا الأب إذا أفشى أحدنا السر أن يدعو عليه وعلى أطفاله وماشيته فيموتون جميعًا.

وقال رابع:

– طلب منا الأب أن نترك المسألة له، وهو الذي سيتولى إقناعكم.. ولكنه أكد لنا أيضًا في الوقت نفسه أنه سيحذركم من الإسراع.

– وأين الأب الآن؟

ووقع عليهم السؤال وقع الصاعقة، فسكتوا جميعًا ولم يفتح منهم أحد فمه. ولما طال الصمت، تطوع أحدهم بالكلام:

– لقد ذهب إلى بعيد.. ولا تضيعوا وقتكم في البحث عنه، فالآن وقد عرفتم الحقيقة سنترك بيوتنا إلى الحقول، وفي استطاعتكم أن تخترقوا القرية.. وسنعود إلى مساكننا بعد أن تكونوا قد ابتعدتم بمسافة كافية.

ولم يقتنع السائقون الأربعة بهذا الرأي.. وعلى الأخص الأسباني بمبا، فقال لأصحابه:

– هيا نبحث عنه.. وسنجده.

فقال لويجي الإيطالي:

– سأبقى أنا هنا بجوار الشاحنتين.. فلا بد من وجود أحد للحراسة.

وذهب الثلاثة الآخرون.. ولم يطل غيابهم، لأن القسيس كان داخل كنيسته متواريًا في ظل أحد الأعمدة الكبيرة، وصاح به جيرار:

– اخرج معنا من هنا لتسوية الحساب.

ولكن الأسباني اعترض قائلًا:

– كلا.. بل سنسوي الحساب معه, ولعله يأتي بمعجزة ينقذ بها نفسه.

وكان القسيس العجوز أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء، فلم يقل كلمة واحدة، ولم يأت بحركة لحماية نفسه. وانقض عليه بمبا وأوقعه على الأرض وجثم على صدره.

وعندئذ صاح جوني الروماني:

– كفى يا رجل.. ما الذي سنستفيده من قتله؟ إنك بهذا ستحرم نفسك من الانتفاع بالمال الذي جازفت بحياتك في سبيل الحصول عليه.

واكتفى بمبا بعدة لطمات، ثم انصرف الرجال الثلاثة عائدين. ولما سمع لويجي بما حدث، وعلم أن زميله الأسباني دنس حرمة الكنيسة زفر زفرة عميقة وقال باقتناع شديد:

– هذا العمل سيجلب علينا سوء الطالع.

ولو أن ليندا الفتاة الخلاسية أدركت إلى حد اختفت من الوجود بالنسبة للرجل الذي كان حبيبها ومعبودها وسيدها لحطم ذلك قلبها.. فهو لا يفكر فيها إطلاقًا، ولا ترد على باله وهو يقود شحنة الموت في هذه الظلمة الحالكة.

لو علمت ليندا هذه الحقيقة، لما عذبت نفسها بالصوم والسهر والبكاء، ولأقبلت على الحياة ولو بعض الإقبال، ولما صدت برناردو المسكين رغم ما أوصاها به جيرار من العطف عليه والاستجابة له.. وقضى الفتى المسكين ليلته يحتسي الخمر، وعندما خرجت ليندا في الصباح الباكر من باب مقصورتها، وقع نظرها عليه معلقًا في حبل مدلى من السقف وقد شنق نفسه وبرزت جثته.

كانت الشاحنة تسير بسرعة السلحفاة الضخمة، مخترقة الشوارع، وأنظار جيرار تفحص كل شبر من الأرض. وخارج المدينة توقف جيرار، وأخذ يدخن مع صاحبه في صمت انتظارًا لانقضاء الساعة المحددة.

ولعله قد مضت من تلك المدة نصفها أو أكثر قليلًا، حينما فتح جيرار باب الشاحنة، وهم بالنزول كي يتمشى قليلًا.. وإذا بضوء وهاج ينير قطاعًا كاملًا من صفحة الأفق, ويكاد يبتلع الليل. كان ضوءًا خاطفًا لا يكاد يصدقه العقل، أبيض اللون مثل أضواء المصورين الخاطفة.. فتكشف كل شبر من الأرض، وكل عود من العشب على مدى النظر. وكأن شمسًا جديدة قد ظهرت في السماء على غرة لتخطف الأبصار ببريق أشعتها، ثم تختفي فجأة كما ظهرت.

ولم يكد هذا الضوء الباهر يختفي حتى دوى رعد قاصف تردد صداه بصورة غير معقولة في موجات متتابعة غير محدودة.. ووصل تأثير الانفجار إلى الشاحنة المستقرة فكاد يدفعها إلى الخلف.. ولفح الهواء المندفع وجه الرجلين.

وبعد دقيقة واحدة سكن كل شيء.. وساد صمت مثل صمت القبور.

الفصل الرابع عشر

مال جوني برأسه إلى الأمام منحنيًا فوق عجلة القيادة، وقد أغلق عينيه إغلاقًا تامًا كأن شيئًا ضارًا يوشك أن ينفذ إلى داخلهما.. وأجفل بشدة عندما جذب جيرار الباب، وقال:

– لا تثر كل هذه الضوضاء.

وبقيا في مكانهما بضع لحظات، لا يتبادلان شيئًا من الحديث، وكل انتباههما موجه إلى مجابهة ذلك الحادث، فقد قتل النيتروجلسرين صاحبيهما. ومعنى هذا أن اثنين من الأربعة قد انسحبا في مثل لمح البصر من المباراة, وكل ما تهيئه للمتبارين من فرص سوانح وآمال براقة. ومعناه أيضًا أن اثنين من ا لمنتظرين في شبه يأس، قد انفتح أمامهما باب الأمل والفرصة المتاحة. ومعنى هذا كذلك أن الشيك الضخم الذي تلوح به الشركة، وكادت تقبض عليه أربعة من الأيدي، قد صار حلمًا ذهبيًا لأربعة أخرى من الأيدي. فهناك اثنان على الأقل سيبتهجان ابتهاجًا جنونيًا عندما يصل النبأ إلى أسماعهما في لاس بييدراس.

ترى من هو الاسم التالي في القائمة؟

إنه سمير لوف..

وما إن قفز هذا الاسم إلى ذهن جيرار، حتى خطر له على الفور خاطر أشبه باليقين.. إن سمير لوف هو الرجل الذي حاول أن يدمر

شاحنتهما بالعبث بجهاز تخفيف الصدمات. واستولى عليه العجب الشديد لأن اسم سمير لوف لم يخطر بباله من قبل، وابتسم في تهكم عندما تذكر أن رجل الله في القرية أرسل لويجي إلى حتفه وهو يزوده بالبركات والأدعية، وأن سمير لوف هتف مرارًا متمنيًا الحظ السعيد عندما مروا من أمام باب القرصان الأسود.. فلا شك أن الخيانة لها طقوسها الخاصة بها.

وأخيرًا بدأت الشاحنة تتحرك بهما.. وانقضت ثلاثة أميال أو أربعة من غير أن يحدث شيء، وكان جوني هو الذي يتولى القيادة.. ولكن في حالة لا يمكن للقلم أن يصفها، لأنه كان أشبه بجسم خالٍ من الحياة, حركاته ثقيلة مضطربة، وأطرافه كأنها ليست من جوارح بدنه. والمصابيح الأمامية لا تكشف عن شيء أكثر مما يتراءى في مدى مائتي ياردة، وكلاهما كان يفكر في ارتياع في اللحظة التي يصلان فيها إلى مسرح الانفجار.. ولم يكف جيرار عن التدخين المتواصل.

كان الهواء من حولهما يبدو ثقيلًا، كأنما الخوف الذي اعتراهما قد غير من طبيعته. ولا عجب! أليس هناك رجلان كانا على قيد الحياة منذ ساعة ولهما جسدان كجسديهما, وعيون كعيونهما, وصوت كصوتهما.. ولم تبق منهما الآن باقية تشهد بوجودهما. لا جثة هناك، ولا أنملة من جثة.. إن هذا ولا مراء لهو أقسى من الموت.. إنه الفناء الكامل, والتلاشي الذي يزلزل العقل.

وبعد قليل، بدأت حالة الشاحنة في التدهور، كأنما تعرضت لسلسة من هبات الريح المتوالية العنيفة. وكانت هذه الهبات متباعدة واسعة

المدى، ثم بدأت تزداد ضيقًا وعنفًا وتباعدًا. و لم تلبث المصابيح الأمامية أن كشفت عن ظروف تزداد سوءًا مع التقدم البطيء، فاشتد ارتياع جوني.. وتخلى عنه كل ما كان قد استعاده من الثقة بنفسه في فترة الراحة بقرية لوس تتوموس.. فيداه الآن ترتجفان، وبين لحظة وأخرى تعتريه حالات من الشلل الوقتي والعجز عن الحركة. وهو يقاوم ذلك كله مقاومة المستميت كي يستعيد سيطرته على نفسه، فكانت الشاحنة بطبيعة الحال تتأثر أشد التأثر بحالته العصبية تلك وهو يقودها، حتى لقد أوشك الانفجار أن يحدث مرة أو مرتين.

وعندئذ قال جيرار:

– قف لحظة.. فليس هناك أي جدوى من التقدم على غير هدى، معرضين أنفسنا للوصول إلى بقعة لا نستطيع فيها أن نتقدم أو نتراجع.. فلنترجل ونمشي على أقدامنا قليلًا لنكتشف المنطقة، ما دام الضوء غير كاف للرؤية.

ونزل الاثنان وفي يد كل منهما مصباح، وساروا على أقدامهما فوق الأرض الوعرة. فاتضح لهما أن الحفر الكثيرة القريبة منهما حدثت من تأثير الشظايا المتطايرة. وعثرا هناك على شظية معدنية تحمل اسم الشركة. ولا شك أنها جزء من الشاحنة المنفجرة، مع أن مكان انفجارها لا يزال بعيدًا جدًا. وبعد هذه المنطقة يوجد انخفاض كبير المدى عمقه لا يزيد على ثلاثة أقدام لا شك أنه يمثل مركز الانفجار. ومن هذا الموضع تناثرت ذرات جوان بمبا ولويجي والشاحنة التي تزن ستة أطنان في الهواء لتذروها الرياح،

وتستودعها آفاق الجو وظلمات الليل.

وهبط جيرار إلى قاع الحفرة، فإذا التراب رخو.. وبقى جوني عند حافتها يخشى الهبوط كأنما هناك فخ منصوب له. واكتفى بإرسال نور مصباحه مدققًا النظر في كل ثنية من ثنيات الأرض.. ولكن لم يجد الرجلان شيئًا يذكر بوجود صاحبيهما، اللهم إلا قطعة من الحجر مسطحة عليها لطخة من الدم. وتنهد جيرار، ولم يسمح الظرف بمرثية أكثر إسهابًا من الزفرة الصامتة؛ فالمشكلة التي أمامهما الآن هي كيف يجتازان تلك الحفرة. وصعد جيرار فوقف بجانب جوني. وعندئذ قال له الروماني:

– لن أستطيع المرور من هنا.. هذا شيء فوق طاقة البشر.

واستجمع جيرار كل قدرته على ضبط النفس حتى لا ينقض عليه ويقتله.

كلا يا جيرار.. لا ينبغي أن تقتله. بل يجب عليك أن تحمل على كتفيك مرة أخرى هذا العبء من الضعف البشري.. اضربه إن شئت، وبخه إن شئت، ولكن كن صبورًا ولا تقتله، فليس أمامك في هذا الموقف إلا الصبر.. فالصبر هو فضيلة الأقوياء. وعليك أن تعود مرة أخرى إلى مزج العنف بالرأفة، وأن تستثير فيه بقايا الولاء والرجولة لترغمه على مواصلة الجهد والكفاح. أجل إن الموت يبدو في هذه اللحظة قريبًا جدًا ومحتملًا جدًا.. ولكن لا يزال هناك أيضًا بقية من الأمل.

– قلت لك من قبل يا جوني كلامًا لا يطيب لي كثيرًا أن أجد نفسي مضطرًا لتكريره على أسماعك.. إن المسألة ليست هل تستطيع أو لا

تستطيع. وهل الأمر في طاقة البشر أو ليس في طاقة البشر، بل المسألة أنك يجب أن تستمر فيما بدأنا فيه...

وقال جوني بإصرار و ثبات:

– كلا.. إني أنفض يدي من هذا الأمر.. وعليك أن تبحث لنفسك عن زميل يصاحبك في هذه المغامرة الجهنمية سواي.

– وكيف السبيل إلى هذا ؟! لقد نسف الانفجار رجلين، وشل الفزع عقل رجل.. فهل من المنتظر أن ترسل الشركة أحدًا؟

– وماذا أمامهما سوى ذلك؟ هل يفعلون المستحيل؟

– بل أمامهم أن يضربونا على أقفيتنا جميعًا ويسرحونا، ثم يستقدمون من أمريكا أخصائيين في هذا العمل.

– وهل ينجح الأخصائيون فيما عجزنا نحن عنه؟ إنه فوق طاقة البشر.

– قد لا يفلحون فعلًا.. ولكن هذا لن يعيدنا إلى عملنا وأملنا.

– وبفرض أنني قبلت الاستمرار معك، فماذا تظن أننا أنا وأنت مستطيعان أن نفعل؟ إن هذا سيستغرق منا بقية الليل، بل وأكثر من هذا الوقت كي نعبر بسلام هذه الحفرة اللعينة، وبعد شروق الشمس بساعة واحدة، تشتد الحرارة اشتدادً فظيعًا. وأنت تعلم أن شحنتنا الجهنمية يمكن أن تنفجر في درجة حرارة متواضعة للغاية.

– إننا لن نكون هناك حين تصل الأمور إلى هذا الحد من السوء.. بل

سنترك الشاحنة عند اشتداد الحر، ونبتعد مسافة طويلة جدًا لنلتمس ظلًا ننعم فيه بالنوم الهادئ.

– أتظن هذا حقًا ؟ وهل هذا ممكن في مثل هذا السهل المقفر الخالي من الأشجار؟ لا بد أنك جننت! ثم ما العمل في الثعابين؟

– عليك لعنة الله.. وما العمل في الحمى الصفراء, وتصلب الشرايين, والبواسير, والحصبة الألمانية؟ لماذا تكدس العقبات في وجهنا؟ أتفعل هذا عمدًا يا جوني؟ أتحاول أن تغيظني؟ أتريد أن تستغفلني؟ أجبني وإلا لأقسمت بالله لأحطمنك.

وبدا واضحًا أن دور جيرار قد حل ليطلق العنان لأعصابه الثائرة.. بيد أن أزمته كانت على الأقل أزمة غضب، وليست أزمة انهيار.. فقد تحمل أكثر من طاقته، بل وأكثر مما يستطيع رجل واحد أن يتحمله في غضون ليلة واحدة.

واندفع جيرار يهيل اللطمات بكل قوته على وجه جوني. ولم يبذل الروماني أية محاولة للدفاع عن نفسه. وبعد برهة سلط جيرار عليه الضوء، فوجد أنفه يدمي, وإحدى عينيه منتفخة. ولكن وجهه بالرغم من اللطمات العنيفة، لم تسر فيها الدماء وظل شاحبًا شديد البياض. فعاد جيرار إلى صفعه بكل قوته،كأنه يمارس علاجًا طبيًا يؤديه بكل هدوء وانتظام. ولم يكف عن صفعه إلا عندما بدأ ذراعاه يشعران بالتعب. وعندئذ قال له:

– والآن هيا بنا إلى العمل.

وعطس جوني مرتين.. وأدهشه أن يجد حالته العامة أفضل بكثير من

ذي قبل، فمشى بجوار جيرار عائدين إلى الشاحنة. وقال جيرار:

– أمامنا الآن أن نبحث عن طريق لاجتياز ذلك المنخفض، وسنفعل هذا معًا.. ولكني سأبدأ بالتقدم بالشاحنة قليلًا.

وصعد جيرار فجلس أمام القيادة، وظل يتحدث من خلال باب الشاحنة المفتوح إلى جوني الذي بقى على الأرض..

– سأقترب من المنخفض قليلًا. وليس هذا أصعب ما في المشكلة، فعلينا بعد هذا أن نسلط المصابيح الكشافة الأمامية على المنخفض. ويبدو لي أن جوانبه تنحدر انحدارًا تدريجيًا.. فربما حالفنا الحظ وهبطنا من جانب، وصعدنا بسهولة من ا لجانب الآخر.

وبعد نصف ساعة، كان من الممكن أن يشاهد في مسقط الضوء المنبعث من المصابيح الأمامية شخصان يكسوهما الطين الرمادي، ومن حولهما سحب من التراب الكثيف تتصاعد ذراتها وتتهاوى متراقصة في النور.. كانا يتنفسان التراب ويبتلعانه ويبصقانه، ثم يتنفسان مرة أخرى ليحتسيا من التراب جرعًا من الأنفاس.

كان صدرهما عاريين تحت هذا الإزار من التراب والعرق.. وفي أيديهما رفشان يكومان بهما الحصى والحجارة ليمهدا وسط المنخفض طريقًا ناعمًا تسلكه الشاحنة هابطة, ومخترقة, وصاعدة.

ولم يكن هذا الحل نتيجة خيار.. فليس الموقف بالذي يسمح بانتقاء أفضل الحلول؛ وإنما هو الحل الأوحد الذي تمليه الظروف، لأن الحادث وقع أسوأ موضع من الرحلة كلها.. فأمام المنخفض وبعده بمقدار ميل

يرتفع الطريق عن مستوى السهل بعدة أقدام, وتحف به من الجانبين الأنابيب. وهذه الأنابيب تحدد مسار الشاحنة، وتحول بينها وبين الدوران حول المنخفض الذي أحدثه الانفجار.

وأوشك العمل بالرفش والمعول على الانتهاء، فأعادا الأدوات إلى مواضعها من الشاحنة. وكانت الساعة قد قاربت الرابعة، والشمس في هذه البقاع تشرق دائمًا في كل يوم من أيام السنة في الساعة السادسة تمامًا. ويطلع النهار فجأة من غير أن يسبقه بشير أو نذير من شفق الفجر.

وجلس جيرار في مقعده أمام عجلة القيادة، وقال:

– هيا بنا.. فلا بد أن ننتهي من عبور المنخفض بعد طلوع النهار بساعة.

– إذا سارت الأمور على ما يرام اجتزنا هذه المسافة في عشر دقائق، وخصوصًا أن الجو الآن أبرد مما كان.

– أتقول على ما يرام؟ هل تؤمن أن لهذه الكلمة وجودًا بالنسبة لنا؟

وضغط على زر المحرك، فدارت الآلة بنعومة ويسر.. وتقدم جوني على رجليه بضع خطوات إلى الأمام ليرشد جيرار، ثم أخذ يمشي بظهره ووجهه إلى الشاحنة. يهديه بواسطة الإشارات, وجيرار ينفذ في صمت. وأحيانًا جوني يرفع يده فيوقفه، أو يرفع يديه معًا إذا كانت الحالة تستدعي الوقوف فورًا.. ثم يستدير زميله ويفحص الطريق، حتى إذا اطمأن إلى الشاحنة في الاتجاه الصحيح عاد لمواجهة جيرار وأشار إليه بالتقدم. وكان هناك انحناء يسير في أحد المواضع، وبعدها يستقيم الطريق. وكان وعرًا رغم

أعمال التمهيد التي قاما بها. بيد أن جيرار كان يقود بمنتهى الحذر، وبمنتهى الدقة، وبمنتهى المهارة.. فلم يحدث أي اهتزاز للشاحنة يدعو إلى تقطيب حاجبيه. واستمر الحال كذلك إلى أن أشار جوني بيديه.

– قف إن العجلة الأمامية عند قمة مرتفع يؤدي إلى السفح الصاعد، فيحسن أن تنزل وتلقي بنفسك نظرة.

ونزل جيرار من الشاحنة، وأخذ يفحص الممر شبرًا شبرًا.. لا بعينيه فقط, بل ويتحسس التربة بأصابعه، ويكاد يشمها ويتذوقها.. وبعد فحص طويل انتصب قائمًا، فقال له جوني:

– إنك لم تفحص كل شيء.

– ما الذي تعنيه؟

– أعني أن الأرض تحت العجلات الخلفية رخوة للغاية.. ومن المحتمل أن تغوص تلك العجلات ولا نستطيع تخليصها من التراب.

– أواثق أنت من ذلك؟

– جرب الأمر بنفسك.. أقفز وسترى أن رجليك تغوصان.

وفعل جيرار ما أشار به جوني، فغاص صندله حتى أنه وجد صعوبة في تخليصه. وصاح متعجبًا:

– يا إلهي! لم تكن الأرض بهذه الصفة ونحن نمهدها منذ قليل، فما الذي حدث؟

فانحنى جوني ودس أصبعه في الآثار التي تركها صندل جيرار، ثم

تشممه، وقال:

– بترول.

– ماذا تقول؟

– شم.

ولم يبق هناك شك، فالرائحة رائحة الزيت الخام. ولم يبق هناك ما يقال. لقد وقعا في الفخ. ووقف الرجلان صامتين.وزادت رطوبة الهواء الذي يداعب صدريهما العاريين، فشعر جيرار برجفة يسيرة تسري في أوصاله.. وأخذ يتمشى وهو يسجل في ذهنه صورة الدرب الذي مهداه منذ قليل.. ولما عاد إلى جوني، قال له:

– لا بد أن إحدى الأنابيب قد أصابتها شظية أحدثت فيها ثقبًا. والحقيقة أن هذا ما كان لابد أن يحدث عقب الانفجار. وكان عدم حدوثه هو الشيء المستبعد الذي تلزم عقب الانفجار، وكان عدم حدوثه هو الشيء المستبعد الذي تلزم له معجزة سماوية.. ولا شك في أن البترول ظل يتسرب في باطن الأرض طيلة هذا الوقت. فإذا تذكرنا أن اثنتي عشرة مضخة تعمل ليل نهار لحفظ الضغط العالي في تلك الأنابيب، لأدركنا أنه لن يمضي وقت طويل حتى تكون في هذا المنخفض الكبير بركة من البترول.

– وماذا نصنع؟

– ليس أمامنا الآن إلا أن نمضي في طريقنا لنغتنم أقصى ما يمكن من

الفرص، إن كانت هناك فرص.

فصاح جوني كالمجنون:

– لا بد أنك فقدت عقلك.. أنت مخبول يهذي بما لا يعقل, يجب أن يوثق كتفاك ويلقى بك في مستشفى المجاذيب.

فعض جيرار على شفته السفلى، وقال:

– اسمع.

– بل أنت الذي يجب أن تصغي لي, إنني حتى هذه اللحظة كنت أسايرك وانقاد لك لأنني كنت أقدر أن لك من العقل والإرادة ما يكفيان لتيسير دفتينا، في الوقت الذي بلغ بي الفزع حد المرض والإعياء.. أما الآن فلا يمكن أن أسلم بوجهة نظرك. إني منسحب من هذه العملية، لن أستمر.. إنك لست بطلًا كما تدعي، ولكنك مجنون.. مصاب بمركب العظمة والشيزوفرينيا، أنت معتوه أحمق.

– أنت لا تدري معنى ما تقول يا جوني.. فحتى الآن كان الرعب قد استولى عليك كما تعترف بذلك. ومع هذا ظللت في الشاحنة، وخلف ظهرك ما يكفي لنسف مدينة بأسرها, فماذا جرى الآن حتى تتهيب وتهرب خوفًا من بركة صغيرة من البترول؟ من منا نحن الاثنين هو الأحمق؟ ثم لا ينبغي أن تنسى أنك واقف هناك تدخن سيجارة، والبترول يتجمع تحت قدميك.

– ليس البترول هو الذي يخيفني.

– ما الذي يخيفك إذن؟

– إنها العلامة.

– ماذا تقول؟

– العلامة.

ولا شك أن هذه الكلمة كانت تعني شيئًا معينًا عند جوني، ولكن جيرار لم يستطع أن يستخلص منه أية كلمة أخرى بخصوصها.. وأخيرًا قال لجوني:

– اسمع.. أنا لا استطيع أن أقضي بقية الليل هنا. ولهذا أحتاج إليك كي ترشدني وأنا أقود الشاحنة. فهل أنت مستعد للقيام بهذا العمل أو لا؟

وحملق الروماني في وجهه، وقد ارتسم الجد على ملامحه وهو واقف في مسقط الضوء، وأخيرًا قال لجيرار بكل ثبات:

– اسمع يا جرار.. لقد كنا صديقين حميمين حتى هذه الليلة, وكم لهونا معًا، ولم نكن نحفل بشيء في الحياة وراء المرح ولا نبالي بخطر أو ضيق.. أليس كذلك ؟ ولكن الآن قد انتهى كل شيء بيننا.

– قلت لك أسرع لننتهي من هذا المأزق اللعين..

– سأذهب معك لآخر مرة.. وسنحاول أن نخترق هذه الحفرة حتى لو غرقنا فيها. ومن المحتمل جدًا يا جيرار أن تنقدح شرارة من أنبوبة العادم أو من الموتور فتشعل بحر البترول من حولنا، ونشوى أحياء قبل أن تنفجر في الهواء. ولكن المصير محتوم على كل حال، ولا أرى لنا خلاصنا منه.

وحتى إذا انتهينا من هذا المأزق, فأنا واثق أن عقبة أخرى ستبرز أمامنا. ومن أجل خاطر صداقتنا القديمة فقط، وليالي لهونا وأنسنا، سأنقاد لك في هذه المرة. ولأنك أيضًا تخيفني، وأشعر أنك في إطارك الطبيعي في هذه المآرق الجهنمية حتى إنني أحس أحيانًا أنك الشيطان نفسه. أما أنا فأشعر بالغربة والفزع، وأجد نفسي بين مصيرين كلاهما شر.. فإما أن أجن أو أموت خوفًا. وتذكر يا جيرار أنني رأيت العلامة.. إنها آية.. وقد حذرتك وأنذرتك أن العاقبة لكلينا لن تكون خيرًا.

– شكرا لك.. وثق أنني عندما أحتاج مستقبلا إلى عراف يكشف لي الطالع، سأتصل بك فورا.. أما الآن، فما رأيك في التحرك للأمام؟

الفصل الخامس عشر

ألقى جيرار، من موضعه أمام عجلة القيادة، نظرة أخيرة على أرض الميعاد التي تنتظره وراء ذلك المنخفض. ثم ملأ صدره بأقصى ما يمكن من هواء الليل الرطب، وضغط على زر المحرك. وتقدمت العجلات الأمامية فوق الربوة، ثم هبطت من جانبها الآخر. وقد امتنع جيرار عن الضغط على البنزين حتى تتحرك الشاحنة بحكم وزنها فقط. وفجأة انقطع التيار عن الآلة، فاضطر إلى الضغط على البنزين قليلاً كي تعود الحياة إلى المحرك، وشعر جيرار بالعجلة الأمامية تغوص قليلاً في التربة اللزجة، فاشتدت قبضته على عجلة القيادة ليكون الزمام كله بيديه.

وأمام نور المصابيح الأمامية، كان جوني يسير إلى الوراء في الأرض المعجونه بالبترول، وكأنه دمية في مسرح عرائس تتراقص وتلوح بذراعيها لتستحث الشاحنة على التقدم.

وضغط جيرار بأقصى استطاعته على البنزين مع البقاء عند المرحلة الأولى من السرعة، فزمجرت الآلة كالوحش الجريح، وهي تتقدم في تلك الأرض اللزجة بسرعة المشي العادي. والطين الرخو يكاد يصل رشاشة إلى الحافة العليا من العجلات، فالبترول يتسلل إلى المخفض بسرعة أكثر بكثير مما قدره الرجلان. وجوني مستمر في السير إلى الخلف وهو يترنح،

وفجأة أنزلق وسقط على ظهره.. وأخذ يصرخ ويلوح بذراعيه ورجليه في محاولات يائسة للنهوض على قدميه في هذه البركة التي كادت تغمره. ووسط هذه المحاولات الجنونية، أطبقت الشاحنة عليه ومرت من فوقه.

كان جيرار قد رأى كل شيء، ولكنه لم يحرك قدمه من فوق رافعة البنزين، لأن التوقف معناه الغرق.. وهو لا يفكر في شيء سوى المرور:

لقد شاهد جوني راقدًا في موضعه، يكاد يخفيه الطين تمامًا، وسمعه يصرخ ويستغيث.. ولكنه تجاهله كل التجاهل. وكانت أنظاره مثبتة على السفح الصاعد الذي يجب أن يتسلقه ليصل إلى بر الأمان.

وبعد عبور الشاحنة فوق جوني، استطاع بجهد المستميت أن يقف على قديمه. ولابد أن ساقه اليسرى التي يتصبب منها الدم قد مرت من فوقها إحدى العجلات.. ولكنها لم تصب بكسر لرخاوة التربة.

وفي اللحظة التي وصلت فيها العجلتان الأماميتان إلى أرض ثابتة نوعًا، غاصت العجلات الخلفية في بركة من البترول، ثم تراجعت الشاحنة بأسرها إلى الخلف.وفي القطاع المقابل لهما من الأفق، تراءى لهما عمود الدخان متصاعد من الحريق الهائل في البئر المشتعلة، وقد أخذت الشمس في الشروق.

ونزل جيرار من القمرة، وقد غارت عيناه وجف حلقه، وكان جوني واقفًا على مسافة يسيرة يحاول التسلق بصعوبة إلى الأرض الجافة، والسائل اللزج الأسود يقطر من ثيابه، كأنما قد استحم في البترول الخام.. والتصقت فروة شعره الغزير المتموج بجبهته في صورة قبيحة.

وقال له جيرار، وهو يرتجف من الغضب بسبب فشله.

– لم يكن في عزمي أن أقف.. ولكن ماذا نصنع الآن؟

ويبدو أن جوني لم يكن مهتما على الإطلاق بالمشكلة، فقد انصرف إلى نزع ثيابه التي أخذت تتمزق لاضطراب حركاته. وخلع حذاءه ووقف عاريا تمامًا يفحص جرحه. وكانت ساقه منتفخة دامية, والدم يسيل منها بغزارة حتى أنه لم يكن من السهل تحديد مدى الإصابة، لأن الساق كلها كانت غارقة في طبقة من الزيت.. فاتجه نحو باب الشاحنة وهو يطلع، فقال له جيرار:

– عندما أجد فسحة من الوقت، سآتي إليك وأساعدك على تنظيف نفسك, أما الآن فلابد لنا من التفكير أولاً في طريقة للخروج من هنا.. فمستوى البترول يرتفع بسرعة. وبعد قليل ستشتد حرارة الشمس، وفضلاً عن هذا ستكون في مدى ساعة بحالة لا تسمح لك بتقديم أية معونة في العمل، وأنا في حاجة إليك. وكانت النظرة التي رشقه بها جوني أشبه بصرخة غضب واسترحام.. ولكن جيرار لم يأبه لها، بل إنه لم يفطن إليها لشدة انشغاله بانفعالات الغضب والتعب. وليس في ذهنه إلا خاطر واحد؛ هو الخروج من هذا المستنقع.

واستطرد جيرار، وكأنه يحدث نفسه:

نعم.. بالتأكيد.. إنها ضربة قذرة تلك التي منينا بها،وستصاب بالحمى قطعًا في مدى ساعة واحدة، فلا ينبغي أن تضيع هذه الساعة سدى.

والبترول يتدفق بسرعة وقوة، حتى كاد مستواه يصل إلى جسم

الشاحنة، وبدت من الخلف وكأنها مستقرة على الأرض بغير عجلات. وركع جيرار على ركبتيه ليفحص الأمر، ومد ذراعيه في البترول حتى كتفه.. ولم يجد ذلك كافيًا، فأخذ نفسًا عميقًا ثم غاص بوجهه في ذلك السائل الكريه.

كلا.. لا فائدة من علاج المؤخرة.. فلابد من ردم المنخفض بمادة صلبة...

وكاد ذهنه يتوقف عن التفكير، واستولى عليه غضب كغضب الأطفال أمام الصعاب التي لا حيلة فيها.. إن خروج الشاحنة من هذه البركة قبل اشتداد حرارة الشمس، كان أهم في نظر جيرار من الحياة نفسها.. فمن على شاكلته من الرجال يرون في العقبات والمصاعب تحديًا وامتحانًا لرجولتهم وحيويتهم، لأن عندهم أهم من الحياة.

وأخذ يفكر في جميع الحيل التي يعرفها بخبرته الطويلة في قيادة الشاحنات من مراعي فنزويلا إلى طرق الإنديز الجبلية.. استعرض تلك الحيل واحدة واحدة؛ فكان ينتهي دائمًا إلى رفضها.. فليس بين يديه من الأدوات إلا الحبال, والرافعة, والرفش, والمعول وهذه لا تكفي. فلابد في هذا الموقف من ونش, ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

وبدأ الهواء يسخن.. ومن صفحة السماء الصافية، أخذت تتصاعد موجات الضوء والحرارة. وجوني جالس على الأرض وقد أسند ظهره إلى إحدى العجلتين الأماميتين.. وكان واضحًا جدًا أن آلامًا شديدة تنتابه. ويبدو أن زحف الحمى كان أسرع بكثير مما تنبأ به جيرار.. فعينا المسكين

قد أحاطت بهما دائرتان سوداوان وهما تدوران في محجريهما في فزع شديد, وكان يغالب نفسه بجهد ومشقة حتى لا يصرخ مستغيثًا.. وأخيرًا هتف:

– يا جيرار.. جيرار.

– إخرس.

– ناشدتك الله.. اقترب مني.

واقترب منه جيرار، وهو يزمجر، وقال:

– سأهتم بك بعد قليل.. ألا تستطيع أن تتركني أفكر خمس دقائق؟

– اسمع.. سيبدأ هذيان الحمى بعد قليل, وحينئذ يكون قد فات الأوان؛ فهل غاصت الشاحنة كثيرًا في الأرض؟

– إلى السوستة الخلفية.. والآن ماذا تريد؟

– أستطيع أن أقول لك ماذا ينبغي أن تفعل، ولكن هل تعدني أن تضمد لي ساقي في الحال إن أنا أخبرتك بالحل؟.

– أعدك أن أضمدها بمجرد خروجنا من هذه الحفرة.

كلا.. بل الآن، فإن القذارة المتراكمة داخل الجرح ستعجل بالغرغرينا بسرعة خاطفة، ثم تأتي حرارة الشمس فتقضي علي.

– وما هي الفكرة التي خطرت لك؟

– عدني أولاً يا جيرار.. عدني أن تضمد جرحي فورًا بعد أن أخبرك بها.. فأنا لا أستطيع أن أموت هكذا.

– بل أنت لا تريد أن تموت لا هكذا ولا بأي طريقة أخرى. أعرف هذا.. ليكن لك ما تريد.. أخبرني إذن.

– إنها حيلة يلجأ إليها السائقون في حقول البترول برومانيا.. فهناك يحدث أحيانًا ما حدث الآن، وهي حيلة لا تخيب.

– اسمع هل تنوي أن تخبرني بالتاريخ التفصيلي لهذه الحكاية, أو تنوي أن تشرحها لي باختصار؟

– أتعدني أن تضمد ساقي فورًا؟

– بحق السماء.. أعدك.

– اسمع إذن.. يا لله.. ما أشد ما تؤلمني ساقي.

– تكلم يا رجل.

– ضع الرافعتين في الجهة الأمامية.. ولكن ليس في أي موضع اعتباطًا، بل يجب أن تكون على خط واحد مع..

– في خط واحد مع ماذا؟

ولكن الروماني سكت فجأة، كأنه استغرق في النوم. وسقط رأسه إلى الأمام، وأخذ جيرار يهزه ويناديه عبثًا.. فأسرع جيرار إلى القمرة، وجاء بزجاجة البراندي، وجذب جوني من شعر رأسه إلى الخلف، وأخذ يضرب خديه بقوة، ثم وضع فم الزجاجة بين شفتيه، وصب البراندي في فمه، فشرق به جوني.. ولكنه ابتلع جرعة منه، وفتح أخيرا عينين يترقرق فيهما الدمع، فأطلت من بين جفونه نظرات زائغة. كانت حسب جيرار كي

يصيح:

– في خط واحد مع ماذا؟

– ماذا؟..أي خط؟.. عم تتحدث؟

– إنك قلت يجب أن أضع الرافعتين في خط واحد مع.. ثم سكت. فماذا تعني؟ في خط واحد مع ماذا؟

– من الصعب أن أشرح لك وأنا بهذه الحالة.. تستطيع أن تعالج أنت الموقف بمفردك. فتفكيري مضطرب، رأسي.. أشعر أنه ينفصل عني. ماذا.. ماذا كنت أقول؟.

فقبض جيرار على كتفي الجريح، وأخذ يهزه بعنف، فانزلقت كفاه عن كتفه بسبب البترول اللاصق ببدنه، ووقع الجريح على جانبه. وارتمى جيرار على الأرض حتى مس أذنه بشفتيه، وأخذ يصرخ:

– ماذا يجب أن أفعل؟ ماذا يجب.. أن.. أفعل؟

– ساقي تؤلمني.. أصنع شيئًا لساقي بحق السماء.

– ماذا يجب أن أفعل؟ قل لي السر.

– اربط الحبال بين العجلتين المزدوجتين في الخلف. وثبت الرافعتين أمام الشاحنة في الأرض، ثم اجذب الحبال بشدة.

ولكن يجب أن تكون الرافعتان في خط واحد.. إحداهما مع الأخرى, ثم غشي على جوني من جديد.. وأسرع جيرار ليأتي بالرافعتين, وثبتهما أمام الشاحنة بست ياردات.

وفتح جوني عينيه مرة أخرى، فلما رأى زميله مشغولاً بالعمل نظر إلى جرحه فوجده لم يضمد ولم ينظف.. ولم يقل شيئًا. ولكنه انفجر باكيًا، وانهمرت الدموع فوق الزيت الذي يلطخ خديه. وحاول أن ينادي جيرار، ولكن أنفاسه خانته, وصوته احتبس فكف عن تلك المحاولة العقيمة.

ومر به جيرار في طريقه ليثبت الحبال بين العجلات الخلفية؛ فقال له:

– حالًا.. حالاً سأعود إليك.

الفصل السادس عشر

لكل دقيقة ثمنها.. والبترول كاد يصل إلى مستوى مسطح الشاحنة من الخلف. ومعنى هذا أن ساعة واحدة كافيه على هذا المعدل كي يصل مستوى البترول إلى تغطية العجلات الأمامية. أما العجلات الخلفية فكانت مغمورة فيه تمامًا.

ومرة أخرى، جذب جيرار نفسًا عميقًا, ثم غاص في السائل، فدخل البترول إلى أذنيه وأنفه. ووجد صعوبة شديدة في إبقاء رأسه تحت السطح.

وفي يمناه كان يمسك بحبل غليظ طويل بيد أن طوله لم يكن كافيا لأنه لا يزيد على عشرين ياردة. ومع ذلك يجب أن يحاول، وأخذ يتحسس بيده الأخرى الخاوية مكانًا بين العجلات المزدوجة ليجد وضعًا مناسبًا لتثبيت الحبل.. ولما أوشكت رئتاه على الانفجار، أخرج رأسه وتنفس، ومد يده فتناول من فوق الشاحنة خرقة كان قد أعدها لمسح وجهه وعينيه. وكان البترول قد أحرق جفونه، وآلمه ألمًا شديدًا أن يفتح عينيه. ولكن خفف من آلامه أن دموعه انهمرت بتأثير السائل المحرق. وبعد دقائق، عاد تنفسه إلى الانتظام، واستجمع قوته وهو يرتجف من التقزز، وغاص تحت الشاحنة من جديد. وكان عليه أن يعمل بهدوء وأناه، وكأنه في الهواء الطلق.

وغاظه أن شيئا يلمسه كان ينزلق بسبب البترول، فلا يدري أي المواضع أدعى للطمأنينة. وكلما حاول تثبيت الحبل وجذبه ليمتحنه خرج في يده.. وتكررت المحاولة والفشل ثلاث مرات، فقرر أن ينتظر ثلاث

دقائق قبل أن يجرب مرة أخرى.

وكانت الشمس قد ارتفعت في الأفق، وأرسلت أشعتها فوف بركة البترول.. فاتجه جيرار إلى القمرة لينظر في الساعة، فإذا بها الثامنة والربع, ومعنى ذلك أن قليلاً من الزمن كافٍ لوصول الأمور إلى حد الخطورة. فرجع على الفور إلى المؤخرة، متجاهلاً أنين جوني الذي أخذت جروحه تتعفن تحت حرارة الشمس.

وفي هذه المرة أفلح.. وبعد عشر دقائق كانت الحبال قد ربطت في الرافعتين اللتين ثبتتا في الأرض تثبيتا عميقًا. وتأكد من حفظ المسافات جيدًا، ثم عاد إلى جوني لينظر في أمره، وقد اطمأن من جهة الترتيب الضروري.

وكان جوني قد عاد إلى غيبوبته، وقد ورمت ساقه تورمًا مصحوبًا باحتقان شديد. وحمله جيرار على ذراعيه، فألقى الجريح رأسه على صدره. وتنبه قليلاً ففتح عينيه، ولاح على وجهه شبح ابتسامة، وغمغم ببضع كلمات باللغة الرومانية لم يستطع جيرار أن يفهم معناها. ثم وضع جيرار حمله برقة بعيدًا عن طريق الشاحنة، وعاد إلى مكانه أمام عجلة القيادة.

كانت هذه هي اللحظة الحاسمة.. ولهذا أخذ جيرار يستعرض في ذهنه كل حرف نطقه جوني قبل أن يغمى عليه. والمفروض أن هذه الحيلة يجب أن تنجح، وانغماس العجلات الخلفية في البترول يسهل حركتها.. فلا خطورة هناك إلا من بخار البترول تحت تأثير الشمس.. فأية شرارة من المحرك يمكن أن تشعل هذا البخار.. ولكن الحرارة لم تشتد بعد.

وضغط على زر المحرك.. وعلى الفور دارت الآلة. وببطء شديد للغاية

ضغط على زر البنزين، ورفع قدمه اليسرى عن الدبرياج ببطء بالغ. وشاهد الحبال وهي تتوتر توترًا شديدًا، وأخذت الرافعة الأولى ترتجف تحت الضغط والشاحنة تتحرك إلى الأمام.. إن المعجزة تحدث أخيرًا، والعجلات تزحف بمنتهى البطء إلى أرض صلده.

وكان جيرار ينظر من باب الشاحنة المفتوح،ويرقب ذلك التقدم بوصة بعد بوصة.. وخيل إليه أن سطح بركة البترول اللامع مفروش بأوراق النقد الجديدة. ولكن هذا الحلم لم يكن المصدر الأكبر لسعادته. بل كان المصدر الأكبر لسعادته أنه استطاع في النهاية أن ينتصر وينجح حيث يعجز أي إنسان أن ينتصر وينجح.

وها هي ذي العجلات الخلفية قد بدأت تجد أرضًا أقرب إلى الصلابة، وهي تخرج من تحت سطح البترول.

ولم يكد جيرار يطلق صيحة فرح حتى سمع صوت ارتطام.. وإذا بإحدى الرافعتين، قد طارت في الهواء من شدة الجذب وارتطمت بالعجلة الأمامية، واختل توازن الشاحنة بعض الاختلال. وفي الوقت عينه اشتد الضغط على إحدى العجلتين الأماميتين دون العجلة الأخرى، وهي على الحافة العليا للمنخفض، فانفجر إطارها.. وقدم جيرار مستمرة في الضغط على البنزين. والشاحنة تترنح وهي تكمل صعودها إلى الأرض الصلدة.

وبعد دقيقة أخرى انتظم صوت الآلة، واستجمعت الشاحنة قوتها كالحيوان المتوثب، وخرجت من بحر الطين إلى الأرض الجافة وتمت المعجزة.

الفصل السابع عشر

آن له أن يستريح..

إنه بشر لطاقته حدود.. ولكن لم يكن مسموحًا له بالراحة؛ فأمامه الآن أكثر من مشكلة تطل برأسها بعد نجاح تلك المعجزة، وأولى تلك المشكلات حالة جوني الخطيرة.

فليس في وسع جيرار أن يعفي نفسه أمام ضميره من المسئولية عما أصاب زميله، ولهذا أقبل برقة بالغة متذرعًا بالصبر الشديد مقدمًا كي ينظف الجلد المحيط بالجرح. ولكن البترول الخام كان لا يسمح له بالتنظيف.. فلم يجدِ المسح بالماء، واضطر إلى استخراج شيء من البنزين من خزان الشاحنة كي يقوم بمهمته.

أجل إنها ليست الطريقة المثلى من وجهة النظر الطبية.. ولكن ما باليد حيلة. وبعد أن تم تنظيف الجرح، وتكشفت أعماقه وآفاقه لعيني جيرار, استولى على جيرار القلق.. فهو جرح متشعب عميق، وفي أغواره صديد لونه آخذ في الاخضرار المخيف.

وغني عن البيان أن الشاحنة خالية من وسائل الإسعاف الأولية، لأنه لم يخطر ببال أحد أن أية حادثة يمكن أن تقع للشاحنة فيما عدا الانفجار، وهو أمر لا يجدي معه إسعاف بطبيعة الحال.

وعمل ذهن جيرار بسرعة.. ليس تحت يده كحل طبي. فليكن مقامه

إذن البراندي، فيه نسبة عالية من الكحول النقي، وليس بيده مشرط معقم لتنظيف الصديد من أعماق الجرح الملامسة للعظام، فليخرج مديته وليطهرها بعود ثقاب، ثم يكحت بها عظام الساق.

وأطلق جوني صرخة قوية كالعواء.. وصب جيرار البراندي في الجرح، وربطه بقطعة من قميص نظيف استخرجه من حقيبة القمرة.

وبعد هذا كان أمامه الإطار المنفجر.. لابد من استبداله؛ وهو عمل عادي جدا بالنسبة لسائق مدرب. ولكن جيرار كان يشعر الآن بإعياء شديد, بحيث لا يستطيع الوقوف على قدميه. وناهيك إذن بنزع الإطار الاحتياطي من موضعه، ودفعه على الأرض أمامه إلى مكان الإطار المنفجر؛ ولذا استغرقت تلك العملية قرابة نصف الساعة. وبعد ذلك نزع الإطار المنفجر، وعانى الأمرين في تثبيت الإطار الجديد في موضعه الصحيح، لأنه كان يعاني دوارًا شديدًا. ولما صار على أهبة التحرك كان الوقت قد قارب منتصف النهار.

ومع علمه بخطر السير في الحرارة القاسية، إلا أنه صمم على التحرك فورًا غير مبالٍ بالدوار الذي يلح على رأسه، ويكاد يشل تلافيف مخه. ولعل هذا الدوار الشديد هو الذي منع ذهنه من تقدير مدى الخطر المنطوي على تعريض أوعية النيتروجلسرين لحرارة الظهر الشديدة.. فكان يقود بحركات آلية وهو لا يكاد يبصر ما أمامه، بعد أن رفع جوني بعناء شديد على كتفه ووضعه بجواره على المقعد.

ورغم محاولات جيرار اليائسة في تضميد الجرح، كانت الغرغرينا قد

بدأت تسري فيه. ولحسن الحظ أن رائحة البترول طردت عنه الذباب والناموس, ولكن بعد قليل انبعثت من جوني روائح أشد من رائحة البترول. ونظر جيرار نحوه بعيون زائغة فوجده غارقًا في بحر من البول ونفايات الأمعاء. واضطر جيرار للوقوف، وحمله مرة أخرى وأرقده في ظل السيارة، وأخذ يغالب عوامل التقزز، وهو ينظف مكانه في القمرة, ويترنح من فرط الإعياء. وتناول آنية الماء, وصب قليلاً منها على رأسه عسى أن تنعشه. ولما رجع زاحفًا على ركبتيه نحو الجريح ألقاه يتنفس بصعوبة بالغة، ولصوت تنفسه القصير حشرجة؛ فصب في فمه قطرات من الماء، فهدأت أنفاسه قليلاً، وعاد إليه شيء من وعيه، ونطق بعبارة مفككة الأوصال باللغة الرومانية، ثم أخذ يترجمها إلى اللغة الألمانية، وأخيرًا إلى اللغة الانجليزية:

– أيقظني للإفطار في منتصف التاسعة.

يا لجوني المسكين! إنه يظن نفسه في فندق, وما أعجبه من فندق! وكانت هذه العبارة سببًا في رد كثير من وعي جيرار إليه. ولم يكن هذا في مصلحته على طول الخط، لأنه أدرك بمزيد من اليقظة فداحة المسئولية عن الشحنة الموكولة إليه.. تلك الشحنة الجهنمية التي يستظل هو وصاحبه الجريح بظلها والشمس في كبد السماء، عند سمت الرأس، ودرجة الحرارة كافية لانفجار تلك الشحنة في أية لحظة.

المسألة الآن تتوقف على درجة الحرارة وعلى الكمية، ولكنه ليس في حالة تسمح بوزن أي اعتبار من الاعتبارات الدقيقة.واستلقى جيرار على

الأرض في الظل، وراح في غيبوبة وسط بين النوم واليقظة، يفكر تفكيرًا محمومًا وهو لا يدري متى تدق ساعته.

كان في صراع بين إرادته وقدرته.. وللمرة بعد الألف أهابت به إرادته أن ينهض. وكأنما أراد أن يجد في الصوت العالي عونًا له على ضعفه، فصاح:

– يجب الآن أن أنهض وانطلق.

ثم تملكه غضب شديد، وهو يفكر في معنى هذا التصميم وما يترتب عليه:

إن عليه الآن أن يجر جوني جرًا على الأرض لأنه لا يستطيع أن يحمله, ويجب قبل هذا أن يضع تحت جسمه شيئًا يقيه من تمزيق لحمه وهو يجره. وليس هذا كل شيء، فعليه أيضًا أن يحمله بوسيلة من الوسائل إلى داخل القمرة، وبدافع اليأس والضعف والعجز، لمعت في ذهنه خاطرة.. انبعثت من مؤخرة رأسه، ووثبت إلى سطح تفكيره.

ولكن لا.. هذا شيء لا يستطيع أن يقدم عليه.. وأخذ يعد في ذهنه قائمة بالحركات التي ينبغي أن يقدم عليها.. فهو أولًا يجب أن يرفع جوني إلى سلم القمرة. كلا بل يجب أن يضع تحته ثيابًا ليجره, ثم يجره من تحت تلك الثياب، ثم يسند ظهره إلى سلم الشاحنة، ثم يصعد هو شخصيًا إلى القمرة ويجذبه من ذراعيه إلى أعلى.. ولكن هل يستطيع هذا؟ كلا إنه لن يستطيع، فهذا فوق طاقة أي بشر.. هذا مطلب غير عادل.

ثم من الذي يكلف جيرار بكل هذا المجهود في هذه اللحظة؟ إن

جوني لا يمكن أن يعد صديقًا بعد كل ما أقدم عليه، ولكن جيرار هز كتفيه، واتجه بجهد جهيد نحو الروماني المستلقي عند العجلة الخلفية، وكأنه جثة فارقتها الحياة، ولم يكن يدري كم من الوقت يستغرق وهو في هذه الحالة أن يلبس جوني ثيابًا، ثم يجره إلى مقدم السيارة ويرفعه إلى المقعد.

لقد كلفه هذا المجهود كل ذرة من قوة أعصابه وعضلاته، حتى لقد أحس بالدم ينبض في عروق عارضيه كأنه الطبول، ويدق في عروق معصميه حتى خشى عليها م الانفجار. وأدهشه أن هذا النحيل الهزيل قد بلغ ثقله كل هذا المبلغ الباهظ, ولكنه أخيرًا أفلح في تنفيذ ما عزم عليه. وها هي ذي كومة من اللحم البشري على أرض القمرة، فقد عجز جيرار عن بذل المجهود الكافي لرفعه إلى المقعد.

وعندما استقر أخيرًا أمام عجلة القيادة، أدهشه أن يرى الشمس قد اكتملت دورتها السماوية، وجنحت إلى المغيب في الأفق الغربي.. وها هو ذا الغسق يخيم، ولن يمضي ربع الساعة حتى يكون الليل قد أرخى سدوله.. ولكن ماذا حدث؟

لا بد أنه أغفى، وهو يقوم بتلك الأعمال المرهقة.. ولكن أين نام؟ ليس لهذا الآن أية أهمية، فإن مرور الوقت قد حققت له على الأقل انتصارًا هامًا. وهو الانتصار على حرارة النهار الذي انقضى من غير أن تنفجر الشحنة.

الفصل الثامن عشر

مرة أخرى بدأ المستقبل يتفتح أمامه بألوانه الزاهية، وتجسد له ذلك المستقبل وسط الظلام على صورة عمود من اللهب والدخان يتصاعد عن بعد سحيق من بئر البترول المشتعل.. وأخذ قلب جيرار يدق دقًا عنيفًا، ولكن بإيقاع جديد غير إيقاع اليأس والغضب.

لقد سجى الليل فجأة كما تبلج النهار فجأة.. وبدت قبة السماء الزرقاء القاتمة متشابهة المعالم، حتى لقد خيل إليه أن مرسومًا سماويًا صدر إلى النجوم كي تتوارى في هذه الليلة الرهيبة، وكان المفروض نظريًا أن جميع المصاعب قد انتهت، وأن انتصاره صار تامًا. ولكن النظريات لا تطابق الواقع في جميع الأحوال، فليس من الحصافة إرخاء العنان للآمال والأحلام في هذه المرحلة. وعليه أن يحصر ذهنه في المضي إلى الأمام ببطء تام من غير أن يجازف أقل مجازفة.

وكانت سرعته الثابتة ستة أميال في الساعة.. وهي سرعة كافية للوصول إلى الهدف قبل انقضاء الليل, أو على الأقل بعد طلوع النهار بساعة.. فليس من المنتظر أن تكون هناك عقبات جديدة في الطريق. ومع ذلك ينبغي ألا تخدعه نعومة بعض المواضع، فيزيد السرعة ويتعجل النصر.

ومن حسن حظ جيرار على كل حال، أنه لم يكن في حالة تسمح له بقيادة الشاحنة بسرعة تزيد على تلك السرعة.

وفي ذلك الوقت، كانت أشياء غريبة للغاية تمر بذهنه.. فهو يتصور أحيانًا خروجه من ذلك المعترك الدامي ظافرًا، ثم يتصور ما يمكن أن يترتب على ذلك الظفر.. فها هو ذا مثلًا يرى نفسه وقد وقف بالشاحنة الوقفة الأخيرة على مسافة مائة ياردة من بئر البترول. وها هو ذا يغادر القمرة ويترك بابها مفتوحًا على سعته.. ثم ها هو ذا يبتعد متهاديًا، والآخرون يهرولون كي يتسلموا الشحنة القاتلة التي حملها إلى هناك.

ولا ينسى في تلك الصورة رجال الإسعاف وهم يخفون إلى جوني المسكين.. وكأنما هو حين تذكر جوني قد استيقظ من حلمه، فعاد بسرعة إلى أرض الواقع ليجد نفسه يقود الشاحنة في السهل المترامي المظلم، والموت رابض وراء ظهره. وبدأت أفكاره بعد ذلك تضطرب حتى وجد عناءً شديدًا في السيطرة عليها.

والشاحنة تزحف كالسلحفاة، وتقرض في بطء تلك الأميال الطوال. وبين الحين والحين يرتفع عند الأفق لسان من اللهب، ثم يختفي وكأن سراب يداعب مخيلة جيرار، يغريه حينًا ويسخر منه أحيانًا.

ولم يفقد جيرار الأمل.. بل كانت إرادته تكافح اليأس والإجهاد، والعرق يتصبب من جبينه، وهو يبحث عبثًا عما يخفف بعض الشيء من تعبه وقلقه. ومطارق الصراع تدق جوانب رأسه وتكاد تحطم جمجمته. ولا يجد سلوى له سوى أن الشاحنة سائرة في طريقها بسرعتها المألوفة، وأن هذا معناه في النهاية النصر.

وكأنما اتفق النعاس والهذيان على اختيار جيرار ميدانًا للمباراة بينهما

لتصفية خصومة قديمة. ولم يجد وسيلة لطردهما.. فهما عنيدان لا يلقيان إليه بالًا، وإنما بالهما كله موجه إلى ما بينهما من نزاع. وإذا استطاع أن يطرد أحدهما سيطر الآخر عليه إلى أن يعود المطرود من جديد.. وهو بينهما ضائع.

ولحسن الحظ إن حركات القائد المدرب تصبح غريزة ثانية له كالمشي، بحيث يسلك السلوك اللازمة وهو شارد الذهن. وهكذا استطاع جيرار أن يستمر في القيادة، وهو نصف نائم تهدهده السرعة البطيئة وآثار ضربة الشمس التي أصيب بها في النهار.

ولعله كان من الخير له أن ينام تمامًا، فتنزلق قدمه عن رافعة البنزين، وتقف الشاحنة عن السير.. ولكنه لم يستطع التفكير في الوقوف، لأنه يجب أن يصل في بكرة الصباح، وإلا فلن يصل على الإطلاق.

وعبثت يده بإناء القهوة المثلجة فوجده فارغًا. ووقعت يده على إناء البراندي، ولكن البراندي لا نفع فيه الآن له وهو يريد منبهًا قويًا.. في حين أن البراندي سيجعله ينام نومًا عميقًا هذه المرة لا مقاومة فيه.. وهو وحيد لا زميل له ولا معين، فيجب عليه أن يحمي نفسه ولا يقع في حبالة النوم مهما كان الثمن. ولا ينبغي أيضًا أن يقع في حبالة الهذيان الذي يصور له عمود اللهب والدخان، وكأنه امرأة عارية ترقص رقصة الغجر على موسيقى محمومة، وتقبل عليه ناعسة الطرف ثقيلة الأرداف، وفي إيمائها إغراء، وفي حركاتها دعوة صريحة إلى أشياء وأشياء.. فهو يعلم أن هذه الراقصة الغجرية لا وجود لها في الواقع، وإنما هي حبالة من أحابيل الموت ينصبها له..

ليته يستطيع أن يطرد جميع الأحلام والتخيلات.. ليته يستطيع أن

يهز رأسه ويقفل عينيه، ثم يفتحهما لينظر بثبات إلى الطريق الذي يشقه أمام الشاحنة شعاع الضوء المنبعث من المصابيح الأمامية.

ولكن المرأة الغجرية العارية كانت أقوى منه، وجسدها الناري كان أقوى من إرادته.. وقد زادت جرأة اللعينة، فلم يشعر بها وهي تفتح باب القمرة وتصعد إليها. ولكن ها هي على كل حال جالسة بجواره، وقد داست بقدمها على جسد جوني الملقى بلا حراك على أرض القمرة.

كانت امرأة بغير وجه.. ومع هذا كانت فاتنة.

وحينما تجذب الأنفاس من سيجارتها، تتخذ شفتاها شكلًا مثيرًا للرغبات.. وهو يعلم مع هذا أنها بغير فم، لأنه ليس لها وجه، وبمجهود ذهني عنيف طردها جيرار بعيدًا.. فعادت إلى الرقص عند حافة الأفق بين اللهب المتصاعد الذي ما كان لها أن تخرج من مسرحه.

ووضع قدمه على الفرملة بعناية ولطف، فوقفت الشاحنة باهتزاز يسير، وجعل يضغط عينيه بأصابعه، ويهز كتفيه، ثم تحسس السجائر فوجد قبضة جوني مشبثة بالصندوق، ولم يستطع أن يستخلصه من بين أصابعه. وكان يعلم أن هناك صناديق أخرى في الشبكة فوق رأسه، وتناول صندوقًا وفتحه وأخذ يدخن لتهدأ أعصابه.

ولما استأنف القيادة عادت المرأة العارية.. ولم يكن لها هذه المرة وجه أيضًا، ومع ذلك بدأت تتحرش به وتستثيره، فصاح بها:

– ارفعي قدميك عن جسم صديقي.

ورنت هذه العبارة في صمت الليل.. ولكن صوتها المرتفع لم يوقظ عقل جيرار. وليس معنى هذا أنه كان نائمًا.. كلا.. بل معناه أنه كان فوق المقعد رجلان.. أحدهما يقود الشاحنة الحمراء في طريقها الوعر الطويل، يقودها بأمانة وحذق من غير أمل ومن غير ابتهاج وهو يتطلع إلى الدخان, واللهب, وظلام الليل, وسكون السهل المترامي.. ثم كان هناك أيضًا رجل آخر يجهل هذا كله، ولكنه منصرف إلى التفكير في الزميلين اللذين ماتا، وفي المرأة العارية التي تمثل الشهوة.. فالشهوة ليس لها وجه وإن كان لها جسم وردفان.. لها فتنتها المنفرة المخيفة.

هذا الرجل الآخر هو الذي سأل المرأة الفاجرة:

– من أنت؟

وقالت المرأة بإغراء:

– اسمي "آن"

– وماذا تريدين؟

– أريدك.

وبدأ عمود اللهب والدخان يتألق بمزيد من الوضوح، ويرتفع فوق الأرض. ولكن الألسنة الحمراء كانت تخلق أشباحًا غريبة الشكل في ذلك الضوء؛ فمن تحت عجلات الشاحنة ولدت مخلوقات كثيرة كانت تلاحق الشاحنة في سيرها قليلًا ثم تختفي في الظلام، أو تدوسها العجلات وتسحقها فوق حصباء الطريق.

ووضعت المرأة العارية التي لا وجه لها يدها على ساق جيرار، وكانت يدًا بضة لدنة.. شعر بحرارتها تسري في جسمه مخترقة ثيابه.. وحتى همهمة آلة الشاحنة، قد استحالت إلى كلمات ممنوعة.. كلمات كم عاقبته أمه على التلفظ بها وهو طفل صغير.. كانت يدها موضوعة على ساق جيرار السائق، فواصل القيادة مستغرقًا في عمله، وقد ارتفعت إبرة السرعة إلى سبعة أميال. والعجلات تجري على الطريق الناعم، كأنما تجري فوق سطح من الزبد، ولا تكاد تثير ورائها غبارًا.. فجيرار السائق يقوم بعمله بكل هدوء، تاركًا جيرار الآخر على سجيته يمرح طليقًا مع بنات خياله.

ومن الغريب أن يجد نفسه وقد عاد إلى هذا البعد السحيق من ماضي طفولته.. فهذه المرأة المدعوة "آن" تقبل عليه عارية تمامًا.. إنه يتذكر من هي بالضبط، ولكن لابد أنه يحتفظ بأصل تلك الصورة منذ صباه، منذ أول تجربة له في بداية المراهقة.. أول تجربة مع امرأة سوقية تحترف الهوى وتتصيد فرائسها من براعم الصبيان التي لم تتفتح بعد.

وشيئًا فشيئًا، تداخل الرجلان.. جيرار السائق وجيرار الحالم، وعادا شخصًا واحدًا له عينان شاخصتان إلى الطريق، وأنفاسه القصيرة تتوالى. واتفق الرجلان في الرأي أخيرًا على شيء واحد، ينبغي أن يكون محور اهتمامهما.. وهو أنهما في أقصى غايات التعب.

وتناول جيرار سيجارة أخرى من الصندوق فوق رأسه وأشعلها.. وكان ضوء الثقاب كافيًا لكي يلقي على الروماني الملقى على الأرض نظرة أدرك منها أنه لم يعد يتنفس، وفهم لماذا كان جوني متشبثا بصندوق

السجائر.. ففي ساعة الموت يتشبث ابن آدم بشيء من أشياء هذه الدنيا، وكان ما تشبث به جوني صندوق سجائر.

وفي بطء وبقسوة، راح الليل يلتهم الثواني والدقائق.. وجيرار يعاني من مرور الزمن البطيء.. وأنشب النوم أظافره الطويلة في أجفانه كأنه يريد أن ينزف منها الدم، ولكن الدم لم ينزف، وخطر له أنه لم تبق في عروقه دماء يمكن أن تستنزف.. وأخذت الأشباح الشيطانية تتراقص في عمود النار والدخان عن بعد.

وازداد الظلام حتى كاد يعمي ناظريه.. وفي كل لحظة يخيل إليه أنه وصل إلى غايته، فيلتفت حوله ويتبين أنه من غايته بعيد.. جد بعيد.

والوقت يمضي ببطء، والشاحنة تسير في طريقها المتشابه، وأصوات غريبة تطن في أذنيه، أصوات تهنئة وترحيب.. ولكنه يفيق فلا يجد لتلك الأصوات واقعًا مشهودًا.

كل شيء يتآمر عليه.. حتى عمود اللهب والدخان الذي كان يبدو واضحًا منذ أول الليل قد خمد لهيبه ثم توارى عن نظره تمامًا, ولم يستطع أن يدرك الحقيقة الكبيرة، أن الفجر قد بدأ يلوح. ولكن عندما رأى وجوهًا حقيقة لرجال حقيقيين يقبلون نحوه، ويلوحون بأيديهم وأذرعهم طالبين منه أن يقف لم يستطع أن يصدق نظره.. فقفز أحدهم إلى سلم القمرة، وشد على ساعده، وهتف به في حماسة بالغة:

– لقد فعلتها يا فتى.. هنيئًا لك الفوز.

الفصل التاسع عشر

نوم ثقيل كنوم السائمة يخمد الفكر ويكاد يخمد الحياة نفسها.

ساعات من النوم تتلوها ساعات من النوم، بغير أحلام، وبغير حركة.. نوم ثقيل كالموت.. وجيرار مستلقٍ بلا حراك كأنما أضاف الإعياء أثقالًا إلى جسده. وهو يغوص تحت تلك الأثقال، وبين الفينة والفينة كانت تخرج من بين شفتيه زفرة ثم يستغرقه نومه الثقيل.

وكانت قد ضربت على مسافة ميلين تقريبًا من مكان الحريق خيمة تظلله من الشمس.. ولكن الحرارة في داخل الخيمة كانت مرهقة، ولا يخفف منها إلا قليلًا من نشاط المراوح الكهربائية, فكانت قنوات من العرق تتصبب على جسد جيرار وهو نائم.

وفي حين انهماك حفنة من الرجال في تفريغ الشحنة، انصرف ثلاثة من الأهالي إلى الحفر لحد توارى فيه جثة جوني ميخاليسكو.. وقال زنجي ضخم وهو يضع المعول والرفش على الأرض ويمسح العرق عن جبينه:

– إنهم يحتمون أن يكون عمق الحفرة ستة أقدام.

وهز زنجي آخر رأسه، وقال:

– ولكن عندما يدفنون واحدًا منا يرون أية كومة من التراب كافية

للغرض.

وكان جوني هناك أيضًا، ولكنه غير مسجى, بل ملقى في كومة على الأرض تحت غطاء من اللون الكاكي سيكون كفنًا له. وفي هذا الموضع، كان ختام رحلة جوني وختام فزعه أيضًا.. وآن للآية التي في الطريق أن تتحقق بحزافيرها.. ولكنه ظفر بشيء واحد على الأقل: فلم تترك جثته طعامًا لجوارح الطير والأوابد في البرية، بل سيضمه بطن الأرض على العادة المتبعة في موطنه.

والشمس الآن جانحة إلى الغروب.. ولايزال جيرار نائمًا في الخيمة, وقد تخلص على الأقل من خطر انفجار الشحنة خلف ظهره.. إنه لن يشترك في الوداع الأخير للرجل الذي يعتبر مسئولًا إلى حد كبير عن موته، أليس هو الذي مر فوق جسمه بالشاحنة في عزم وإصرار؟

ها هو ذا المهندس الجديد الذي عين للإشراف على هذا الحقل بدلًا من راينر.. إنه يغدو ويروح قلقًا مضطربًا لا يدري أين يجد كتابًا للصلوات يتلو منه شيئًا على جثة جوني.. وأخذ الشاب يفتح الأدراج والدواليب ويصيح ساخطًا:

– أين ذهب كتاب الصلوات بحق الشيطان؟

ثم ينتبه إلى أن لفظ الشيطان لا يليق استخدامه في هذا الظرف، فيعض على شفته السفلى، وهو يستأنف البحث..وأخيرًا عثر بالكتاب ملقى بين قوارير العقاقير بدولاب الأدوية، فاختطفه وأسرع يعدو نحو الحفرة المعدة لاستقبال الميت.

وفي هذا المكان، كانت النار المندلعة في البئر ترسل الشرر وتزمجر كأنها تعلن سيطرتها على تلك البقعة من الدنيا، ولا تسمح لصوت بشري أن يسمع.. حتى صوت صلاة تتلى على غريب الدار قبل أن يواريه التراب.

وفي الوقت نفسه، كان رجلان من الأشداء يتصببان عرقًا، وهما يبسطان أطراف جوني ليصير في وضع مناسب. ولكن تخشب الجثة وتعفن اللحم الذي استشرى فيه الصديد جعل المهمة غير يسيرة وغير مستحبة.. فكان الرجلان يشيحان بوجهيهما بين الحين والحين ويغمغمان باللعنات.

والمهندس واقف هناك، وظهر عمود النار يقلب بسرعة صفحات كتاب الصلوات، ومن خلفه وقف اثنان من حفاري القبر، وفي يد كل منهما مشعل من الشعلتين يثير سعالهما، والمهندس الشاب يسعل أيضًا ويمضي في التلاوة:

– أنا القيامة وأنا الحياة.. هكذا يقول الرب.. من آمن بي يحيى حتى لو ميتًا.

ووقفت حفنة صغيرة من الرجال يصغون للصلاة، فيهم الخبراء, ورجال الإسعاف, والعمال من الأهالي الذين جاءوا ليحلوا محل مواطنيهم المقتولين في حريق البئر. وكلما انتهى المهندس من تلاوة نص من النصوص في الكتاب، كان الكاثوليك منهم يرسمون الصليب على وجوههم ويهتفون بخشوع:

– آمين.

ويستطرد المهندس التلاوة:

– عريانًا جئت إلى هذا العالم وعريانًا أغادره، الرب أعطى والرب أخذ.. فليكن مباركًا اسم الرب.

وعبث الهواء بإحدى الشعلتين فانطفأت، وانتاب سعال شديد أحد الواقفين. فألقاها حاملها من يده في التراب، وأخذ يهيل الرمال في الحفرة فوق الجسد العاري إلا من كفنه الكاكي اللون.

واقترب المهندس خطوتين من حفرة القبر، وتلا صلاة أخرى قصيرة:

– نستودع رحمتك يا رب جسد الأخ جوني ميخاليسكو الذي لم نعرفه، ولعل الحياة جرفته، فانقاد في تيارها إلى فعل الشر والظلم.. لسنا ندري يا رب ولكنك تعرف حقائق السرائر. ولكننا نعلم أنه مات، وهو يؤدي واجبًا تعهد بالقيام به.. مات متواضعًا في غير كبرياء، فتقبل روحه يا رب واغفر له وادخله في ملكوتك.

وحثا المهندس حفنة من التراب في القبر، وقال:

– آدم من تراب وإلى التراب يعود.

وبعد ساعات قليلة كان جيرار جالسًا أمام ذلك المهندس، وأمام أخصائيين جاءا بالطائرة من تكساس. وكانت في فم جيرار سيجارة مشتعلة، وبيده كأس من الويسكي.. وكان يجيب على الأسئلة التي توجه إليه من مقتل جوني:

– ألم تستطع أن توقف السيارة في اللحظة المناسبة؟

وبهدوء تام قال جيرار.

– كان قريبًا جدًا من جانب السيارة.. ولم أره وهو يسقط على الأرض. وكنت على كل حال في حالة لا توصف من الإعياء.

وهز المهندس رأسه، وقال بلهجة ذات مغزى:

– آه.

وكان جيرار قد نام طويلًا.. ونهض فاغتسل وحلق لحيته وارتدى ثيابًا نظيفة، ولكنه لم يكد يعرف نفسه حينما نظر إلى وجهه في المرآة.. كان يشعر أنه تغير كثيرًا، ولكنه مسرور على الأقل لأن الويسكي الذي يشربه ليس من الصناعة المحلية، بل ولا ويسكي أمريكا.. إنه الويسكي الاسكتلندي الأصلي.

وتنبه إلى صوت المهندس، وهو يقول:

– إني أعرف ماذا ينبغي أن أكتب في تقريري.. ولا يمكن أن يعلق بك ملام، فالجرح نفسه لم يكن خطيرًا، ولكن التلوث والتعفن هما اللذان قضيا عليه.. وليس الذنب في ذلك ذنبك، سأوضح هذا تمامًا في تقريري.

ولم يصدق جيرار أنه حقق هدفه إلا بعد أن وضعوا بين يديه الإيصال الدال على تسلم الشحنة.. ثم قال له المهندس:

– أحرص على هذا الإيصال.. فهو يساوي ألفي دولار، لأنني أضفت نصيب زميلك إلى نصيبك. ولن يصل تقريري إلى الرئاسة قبل أسبوع، فهذا الإيصال هو الذي ستحصل به على الألفي دولار فورًا.

وتذكر جيدًا ما يأتي.. إن جوني ميخاليسكو مات هنا بعد وصول الشاحنة.. وقبل وفاته قال أنه يوصي لك بنصيبه، وقد اتفقت مع رجالي هنا على هذه الرواية، لأنك تستحق ذلك.. والشركة غنية بما فيه الكفاية، فلا حاجة بنا إلى إعفائها من نصف المبلغ لوفاة زميلك.

وقال جيرار بسرعة:

– شكرًا لك، شكرًا لك.

ألفان من الدولارات.. إنه المبلغ الذي يحتاج إليه بالتمام والكمال. وأخذت الصور تتراقص أمام عينيه، لقد انتهى الآن عهد الفاقة.. انتهت الرحلة, والعذاب, والجنون, والفزع.

وسأله المهندس:

– متى تريد أن تعود؟ نستطيع إذا شئت أن نكلف أحد الرجال هنا بتوصيلك في سيارة خاصة، وستكون سعيدًا بتمضية عطلة الأسبوع في لاس بييدراس؛ وهكذا تظفر بشيء من الراحة قبل أن تأتي للشحنة التالية إلى هنا.

وكان جيرار قد نسي تمامًا أن هناك شحنة أخرى لا بد من إحضارها بدلًا من الشحنة المفقودة بالانفجار في الطريق، وابتسم ابتسامة شاحبة وقال في نفسه:

– ليهنأ سمير لوف هذه المرة بالعمل.

ولكنه طبعًا كان حريصًا على ألا يقول للمهندس أنه لا ينوي العودة،

بل قال:

– أنا على خير ما يرام بعد هذا النوم الطويل.. سأتولى القيادة بنفسي، فدعني أتم شرابي هذا ثم أنطلق.

وكانت الساعة مبكرة، ولم ترتفع الشمس بعد في كبد السماء وهو يتأهب للعودة من هذا الطريق الذي شهد مصرع ثلاثة رجال هم: بمبا, ولويجي, وجوني.

ولعل كاهن قرية لوس توتيموس قد لقى حتفه أيضًا من أثر الضرب المبرح الذي كالوه له.. وإنه لسعيد أنه بقى من بعدهم على قيد الحياة ليجد الثراء ويظفر بالعودة من حيث جاء.

الفصل العشرون

أعطوه الشاحنة التي جاء بها ليعود إلى لاس بييدراس، على أن يرجع إليهم بشحنة غيرها.. صفق باب القمرة بعنف. وانطلق عند إدارة المحرك انطلاقة هزت الشاحنة هزًا عنيفًا. وعندما غير درجات السرعة، فعل ذلك بخشونة اهتزت لها دواليب المحرك. ومرق من بوابة المعسكر كالسهم وهو يلوح بذراعه لمن وقفوا في وداعه. وفي مرآة الشاحنة استطاع أن يرى وجه المهندس وهو يلوح له.

ها هو ذا أخيرًا وحده مع خططه وبواكير المتعة المدخرة له، يقود بسرعة خاطفة نحو ذلك المستقبل الجميل الذي ينتظره في نهاية الطريق، حيث زورق الأحلام المربوط على شواطئ البحر الكاريبي في قرية صغيرة من قرى الصيادين.

وتصاعدت إلى شفتيه أغنية من أغاني النصر التي كان يهزج بها الجنود في الحرب وهو يسابق الريح.. فسعادته الغامرة لا يمكن أن تجد تعبيرًا أصدق من السرعة. ومع هذا كان دقيقًا بارعًا في قيادته السريعة، ومؤشر السرعة يرتفع إلى الستين ميلًا, ثم الخمسة والستين, ثم السبعين، حتى أوشكت الشاحنة الفارغة أن تحلق فوق وجه الأرض، وآلتها تغني أنشودة خافتة رتيبة النغمات.

إن المسافة إلى بييدراس ثلاثمائة ميل.. وهي بمعدل هذه السرعة لا

تستغرق أكثر من بضع ساعات، وهواء الصبح المنعش يهب رطيبًا بفضل السرعة الهائلة، وذهنه الصافي الذي لا يعكره خوف أو قلق يواجه بثبات تلك الأمور التي لا بد أن تواجهه عند عودته.

أمامه الشيء الكثير.. فذلك الزورق الذي يحلم به لا بد من إصلاحه وإعداده، والملاحون لابد من الاتفاق معهم بعد انتقائهم، ولابد أيضًا من استخراج ترخيص تجاري.. ثم بعد هذا لا بد من شحنة أو شحنتين من السلع المهربة يتقاضى عن نقلها أجرًا خياليًا بالاتفاق مع شريكه الكيماوي.

وبعد..؟

يا له من سؤال.. بعد هذا بالطبع فرنسا وباريس.. والثروة الكبيرة التي ستتيح له حياة الترف والبذخ سنة أو سنتين.

وطاب له أن يتخيل نفسه عند وصوله لاس بييدراس، يمر في طريقه بالقرصان الأسود.. وسيكون الجميع هناك، وليندا أيضًا ستكون هناك.

ورده تذكر ليندا إلى طيف تلك المدعوة آن.. وتخيل فزع ليندا وغضبها حين يروي لها تلك القصة.. أجل سوف يقف برهة بشاحنته أمام باب القرصان الأسود وسيقول..

ولم يستطع أن يتخيل ماذا سيقول.. ولكنه استطاع أن يتصور نفسه وهو يقتحم بالشاحنة معسكر الشركة، ويترجل منها أمام كوخ أوبرين، ويسمعه يقول:

– حسنًا يا فتى.. لقد انتصرت, ويسعدني أن أراك سالمًا..

ولم يسعفه خياله بأكثر من هذا.. ولعل السبب أنه في تلك الرحلة ظل يقاوم الأمل والخيال، وعليه الآن وهو في طريق العودة أن يقاوم السأم والملل والفراغ، وأن يتسلى قدر استطاعته بمناظر الطريق، ولكن السهل متشابه المعالم كأنه سطح منضدة كبيرة. ولم يعد يبدو أمامه عمود الدخان الذي يتعلق به بصره في طريق الذهاب..لا شجر هناك، ولا ارتفاع، ولا انخفاض.. وإنما هي مراع قليلة هزيلة، وأنابيب البترول تحف بجانبي الطريق.

ولفت نظره سرب من الطيور الملونة يعبر السماء.. فقال لنفسه:

– لا بد أن أحصل على طائر من هذا النوع أضعه في قفص مذهب في مقدمة الزورق.. وسأشتري أيضًا نسناسًا.

وابتسم حين تذكر صديقًا له من فنزويلا لأنه سمى نسناسه بوليفار.

– هذا هو شأن جميع أهالي أمريكا الجنوبية.. فيهم زهو وخيلاء. ولكنهم الآن سيعاملونني بكل حفاوة واحترام وقد أصبحت غنيًا، فالمال في هذه البلاد هو الشيء الوحيد الذي يحلونه محل الاعتبار.

وشعر بالجوع.. فجذب حقيبة المئونة التي أعدها له الطاهي الصيني في معسكر حقل البترول، فوجد كمية من الطعام تكفي أسرة كاملة.. فهناك حقاق من لحم الجمبري، ولحم الدجاج، وشيكولاته، وحقاق من البيرة، وزجاجة ويسكي، وفطيرًا محشوًا باللحم، وأصنافًا صينية لم يعرف لها اسمًا، وأخذ يأكل مستمتعًا وقد أوقف الشاحنة، وشرب شيئًا من البيرة.. ثم استأنف طريقه، وهو لا يشعر بثقل في أجفانه.. وإن كانت رتابة الطريق

تكاد تسلمه إلى النوم.

وأخيرًا لم يبق بينه وبين لاس بييدراس سوى عشرة أميال... ولكنها العشرة الأميال الجبلية التي تنحدر وتلتوي بين الجبل وبين الهوة العميقة، وهو الآن بحاجة إلى كل مهارته بالقيادة، وإلى قوة الأعصاب، وقوة الفرامل، واستهوته اللعبة الاستعراضية التي أخرجته من الملل والسأم.. فزاد من السرعة، ثم زاد منها، والشاحنة تلتوي ثم تستقيم كأنها الأفعوان.

إن المنحنى القادم ضيق يجب أن يتم اجتيازه بسرعة أكبر ودقة أشد، ولكنه بالطبع لعبة أطفال.. فالموت قد فتح فكيه وأطلق فريسته, وها هي ذي عائدة إلى مأمنها، وفي يدها الغنيمة الضخمة.

إن الشاحنة الآن لم تعد لها علاقة بالموت بعد أن تخلصت من حمولتها.. وإنما هي مطيعة طيعة في يد رجل أحرز النصر.

وزادت السرعة.. ويدا جيرار تتحركان بسرعة وثبات فوق عجلة القيادة. وقدماه تعملان بمهارة وخفة فوق رافعة البنزين, والفرامل, والدبرياج، وقلبه يشدو بأغنية الفوز، ودمه يتدفق في عروقه وهو مندفع نحو المدينة.. وها هي ذي علامة من علامات الطرق تلوح لتحذير السائقين من المنحنيات الثلاثة التي فضل جوني أن يترك جيرار يجتازها وحده.. هذه منحنيات خطيرة لا محل فيها للمجازفة.. ولا بد من استخدام الفرامل.

الفرامل هنا ضرورية.. ولكن بحق السماء أين الفرامل؟

إن قدمه تضغط عبثًا على الفرملة.. واندفعت يده إلى فرملة اليد،

وهي طبعًا غير كافية مع هذه السرعة المنحدرة، وبلهفة غير السرعة من المرحلة الرابعة إلى المرحلة الأولى، واهتزت الشاحنة اهتزازًا شديدًا ومؤشر السرعة يهبط إلى ما دون الأربعين. ولم تبق أمامه إلا ثلاثون ياردة كي يهبط بالسرعة الحالية إلى منتصفها على الأقل، وسمع صوتًا معدنيًا ضئيلًا داخل الآلة، ولم يجد بدًا من تحويل السيارة لتصطدم بكتف الجبل الصخري.

ولكن الحظ الذي حالفه تخلى عنه؛ ففي كتف الجبل، في ذلك الموضع، مزراب وأخدود لتصريف مياه المطر. وهذا الخندق اعترض الآن عجلة الشاحنة، فدارت الشاحنة حول نفسها، واقتحمت الحاجز الحديدي المفضي إلى الهوة التي في أعماقها البحر.

إنه نفسه ذلك البحر الكاريبي الذي عقد عليه آماله, وعندما غاصت الشاحنة في البحر، كان جيرار لم يزل ممسكًا بعجلة القيادة فريسة لعناده المفرط, وإصراره على التشبث بإملاء إرادته على الحياة، وعلى تصاريف القدر.

الفهرس